هارودیس

اسم الكتاب : هارووديس

اسم مؤلف الكتاب : مصطفى الششتاوي

تصميم الغلاف : وحيد محمد

إخراج داخلى : يوسف الفرماوي

المراجعة اللغوية : هند قُرطام

رقم الإيداع : ١٦٥٨٨ / ٢٠٢١

الترقيم الدولي : ٩٧٨٩٧٧٦٩١٣٠٢٨

جميع الحقوق محفوظة ©

أي اقتباس أو تقليد أو إعادة نشر دون موافقة كتابية يعرض صاحبه

للمساءلة القانونية، والآراء والمادة الواردة

وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالكاتب لا غير.

ebharpuplishing@gmail.com 01099197450

رواية

هارودبس

مصطفى الششتاوي

إبهار
للنشر و التوزيع

إهداء

لذاتى التي لم يؤمن بها غيرى

مصطفى الششتاوى

معادلة تمثيل الجمال في الروح

الروح تبحث عن الشخص الملائم

الجمال يشمل الشهوة عادةً

والشهوة لا بد أن يصاحبها تمكن

والآن التمكن هو مصيرك

لا تبحث عنها هي من ستأتيك

لعلك تحاذر من روابطها

فإن لكل رابط عقدة

لقد تعايشت مع بعض الأحداث وتفاعلت مع بعض المواقف وانخدعت في بعض الأشخاص فكانت هذه الفكرة وليدة المزج بين الواقع والخيال.

حذرني الجميع من خوض تلك التجربة وعواقبها الوخيمة والتلاعب بعوالم الخفاء.. العادة يتلقي الجميع الهزيمة السحقاء والتجاهل التام من قبلي.. يا لي من وغدٌ، عنيد صرت فريسة سهلة المنال لتلك الجميلة وأصبحت أنا ذاك الملبوس أسير شباكها.. أخ لو ألقيت بتكبري بعيدًا لما غرزت بأحوالي وحلا.

"نصيحة مهزوم منكسر أطرد الغرور والتكبر بعيدًا عن بصرك."

"بعد صراع دام طوال فترة كتابة تلك الرواية كاد أن ينزع قلبي من قفصه لولا أومأت بالإيجاب والموافقة عنوة له...

مهزوم أنا.. لتعتلي مقدمته مقدمتي.

نظر لي معبرًا عن غضبه المكنون وهي عبارة تحذيرية حتي لا أبوح باسمه ، اعتذر لك أرجوك لا تغضب مني.

تقبل اعتذاري سريعًا ولكنه يريد ألتقاطُ قلمي ليخطو مقدمته بيديه وكأنها أول بداية تعريفية له في هذا الكون ذلك ما تبين لي من شغفه علي الإقدام بانتزاع قلمي مني، لن أعطيك إياه مطلقًا.

أومات بهز رأسي إشارة مني بالموافقة وداخلي قلق شديد ينهش أوصالي فأنا أهاب مثل جميعكم كلماته وتعبيراته فهو

لا يهاب أحدنا

لا يرحم أحدنا

لا يعترف بأي صديق

ولن يبالي بالمشاعر مطلقًا

من الواضح أنه استفز من كلماتي هذه، أراه يزفر دخانا ويحدق عينيه المجوفتين اللتين اشتعلتا احمرارًا بل صارتا دمًا قاتمًا، أنتظرُ لماذا تأتيني؟

مقدم بريحه العاتية وبدا الاضطراب والتوتر يهامسني حتي ارتجف قلبي مني فقد تملكني الهرع أأعتذر له عن غبائي الشديد ؟ أم ماذا أفعل ؟ كل ما يحدث إثر محاولتي الهزيلة لكتابة اسمك، امتددت يداه بعنفوان زائد لأخذ القلم وأنا لا أملك حق صد الهجمات الغاشمة أو حتي التعبير بأبسط الكلمات فقد رأيتُ الجحيم المنبعث من نظراته المتوهجة وبالفعل أخذ ما أراد بكل سلاسة وما مني إلا : خذ، لكن من فضلك لا تغضب مني أو تاخذ تجاهى موقف عدائي

تجاهل كلماتي المهزوزة، فجأة سعادة تغمرة وتحولت النيران ثلجًا هادئة بسرعة النفث ياله من متمكن التغيرات والتحكم، علي عكس

ما يصيبني من شعور بلعنه فأنا وكل من هم مثلي يعادون أفكاره فإنه لعنة الأرض بأكملها ولكن لا أستطيع البوح بما يحمله صدري من غليل سأتجاهل كل ما ينوبني وعلي أن أذهب لابحث عن قلم أخر أُلاحقه قبل أن يغدو ويغزو أوراقي.

أعلم جيدًا بأنك متدارك مشاعري تجاهك ولا تبالي لكن لعنة الله علي المتجبرين أمثالك فأنا عصفور بقفصه لا أستطيع الهروب ولا الرفرفة بأجنحتي في سماء الله، لا حول لي ولا قوة بجانبك.

نهضت وأنا مزفر الريح من بعد جلوسه جواري تعبيرًا عن ضيقي وغضبي وهو ممسك بقلمي ويعتلي مكانتي بتباهي شديد، ناظرًا لي وتعتليه ابتسامه باهتة الكيان وأظنها أيضًا علامة استنكار لما يصير، أنه يجيب تساؤلاتي بخبث وئيد :

- أرحل من هنا فقد اكتسبت ما أردت لا وجود لك بجانبي

بدأت أخطو طريق الخروج من دائرته ومحاوره ليضحى جالسًا بمقعدي متأملا متعلقاتي وتركني لأعارك نفسي وأحاورها :

- أن ألتفت أو أحاول الصراخ في وجهه أو لا ترحل أيها الجبان

وأنا اجيبها يائسًا :

- أنتِ لا تعرفينه عند غضبه، إن غضب فعل ما يريد فقد عصى أمر الله كيف يطيعني ؟ لن يعير لاحد اهتمام، فتجبره لا حدود له يشيب منه الولدان.

تجاهلت نفسي ووساوسي لأنهي ذاك الصراع باكرًا بإعلان الرحيل وإذ به يصدر رعدًا.

مقدمته

لقد أحتللت هذه الأوراق من ذلك الهزيل الضعيف لاستنكاري بذاته لأنني أراه ضئيل الفكر فليس أمر يعيرني انتباه، لأغزوكم بجنودي وتاريخ أوليائي وأبنائي.

لأول مرة في تاريخكم الهش أن تستكتب يداى و ذلك أثر ما رأيته وقراءته من مهاترات مؤلفين سُذّج، فدائمًا كنت أملي عليهم أو أرسل عليهم بسهامي المارقه ولكني مللت فشلهم الذريع وغباءهم اللا معقول.

أعيرني انتباهك حالاَ

هل قرأت نداء كلماتي حقًا... فعلت ! أبشرك لقد دخلت تحت سيطرتي الآن فأصبحت مملوك من مماليكي، سرت دمية يهرتئها صغير بين يديه بعد استمتاعه بها.

أنتَ ! نعم أنت ! لا تتلفت يمينًا و يسارًا هكذا أتحاول تجاهلي حقًا !

أنتَ يا من ترى روايتي ولم تتجه إليها لتحملها بين راحتيك ! أنتَ طائع لأوامري.

أنتَ يا من حملتها بين يديك وبدأت عيناك تنتهك حرمت كلماتي ! طائع لأوامري.

أنتَ يا من أعجبك الغلاف ولم تشتريها ! أنتَ طائع مثل أخويك.

حتي وإن اشتريتها ! أيضًا طائع لي.

هل أغضبك تهجمي لتفرز عيناك شررًا ؟ إذن لقد نجحت رسالتي في السيطرة عليك وهي البداية.

أنفر من القراءة لو استطعت وإن نفرت اعلم بأنك لم تبدع بالفكر ولم تتجرأ على اتخاذ القرار.

أنتَ مُساق الآن

ستهدأ كلماتي رويدًا حاورني إن اتُحِت لك فرصة

اشتريتها... لم ولن تشتريها... مزقتها أو حتى أحرقتها

هل وضعت خط تحت اختيارك ؟... هل تمعنت جيدًا ؟

يا للعبث لقد جعلتني أجبرك أيضًا على الاختيار !

سأخبرك بأمرك

أنتَ مطيع جدًا مثل أبائك وأجدادك، فأنا دمك ودنياك وأنتَ أجوف يسيطر عليك عماك.

طر من هذا المكان، أهرب لتعرف حقيقتك المبلية، لا سبيل للهرب يا آدمي أنا مسلط عليك لأهلكنك، أنت مناقض ذاتك قليلاً... ضائع... تسبني وفي الذات نفسه تهواني وتحبنى يا لسذاجة فكرك !

اعلم حتى و إن صلحت سأرتقب مغازاتك حتى أنال مرادى وأستطع التسلل من ثقب تثقبه بفعلك و بإرادتك.

أعرفك بمجيب ملذاتك و رغباتك و شهواتك أنا بكل فخر " ابن إبليس"

أي عزازيل الصغير المدلل لأبيه.

لقد سيطر أبي بدهائه و ابتداعاته على عالمكم منذ وهلتكم الأولى حتي استطاع النيل و الفوز بخروج أبيكم من جنته حتى جاءت نفختي و أبصرت عالمكم و تعلمت متطلباتي وواجباتي تجاهكم على يد معلمين أكفاء حتى أتت لحظة امتحاني واختيارى وبالفعل تفوقت على نفسي بعد أن تحداني الجميع وبفضل بعض التوجيهات ومن قبل ذاتهم نلت متعتي وملاذي في أول جريمة قتل على وجه البسيطه (قابيل وهابيل)، على غير المتوقع كافئني أبي باعتلائي عرش يجوره فلم أتوقع هذه المكانة إطلاقًا لقد فاقت ذهولي وجنوني ياله من منصب ذو أهمية كبيرة، هل أنا على استطاعة حمل هذه الأمانة علي عاتقي ؟ بعد أن غمرت السعادة بحوري أحسستُ فجأة بالمسئولية الصادمة المجهدة ولكن أنا لها بالمرصاد.

سأتفوق أكثر وأكثر فأكثر حتى أعبث بكم.

يا أيها الدمي المحبذ لدي هل نلت منكم لتحدقوا بي وتظهرون أنيابكم، سامحوني أعتذر.

أحدثك... انصت فهي أوامر

لتقط أنفاسك، تريث من فضلك، أنا أخاف عليك، بعد سماحتك أريد محاورتك، أنا أمامك لا تبحث عني !

أريدك أن تدرك الحقيقه الوقيعة ليست المخيلة من قبل المؤلفين الذين ثاروا مخاوفك وقاموا تحت شعارى بترويعك وأنا أبرئ ذمتي من ذلك وهذا التصرف من قبلي ليس إلا شجاعة الملوك، فلتزيحوا المعاصم عن فكركم وأعينكم.

أرجوك لا تنزعج من صراحتي، لا تأثم فتقذف محصناتي بالسب واللعن وإن فعلت فهذا أفضل لإنك ملازمي ورفيقي وأنا ظلك.

. بعطفي سأحتوي مساءك وغضبك.

أبحثوا في أحشاء المعلوم ولا ترهقوا أذهانكم بالمجهول

ابن إبليس

مقدمتي

اشتقت لهذه الكلمة... لم أكن أتوقع يومًا أن يخطوها قلمي لكن الله علي كل شئ قدير.

أولاً وقبل كل شئ أحبُ أن أخبركم بذاتي

أنا المؤلف الأسير كما لقبني أحد السادة السجناء، نعم... لا تتعجب أنا وقيع في سجن الدنيا.

لا أستطيع أن أحكم علي أحوالي إن كنت خارج ذلك النطاق أن أقوم بتلك الخطوة (الكتابة) أم لا، أنا دائمًا صاحب أحلام وطموح ناقصة الكمال وذلك لأسباب لم أتداركها إلا عندما دلفت جدران تلك الكربة.

هنا وجدت ذاتي لأريح جهاد نفسي من العناء والبحث، علمت قيمة أتفه الأمور في الدنيا، لقد فقدت الكثير ولكن بنعم الله علي اكتسبت نفسي وقلبي.

ومن أهم الأمور التي تعلمتها معرفة معادن البشر وخصيصًا التي تأثرت بها و صدمت جدًا وندمت عليها ألا وهي الصداقات المقنعة بغشاء الذئاب.

اكتشفت إنني متشابه جدًا مع كلماتي أي مؤلفتي هذه، هي تتمني الظهور للبصيرة والنشر وأنا مثلها تمامًا أتمنى رؤية النور وأن ألتمس الحياة الطبيعية.

رسالتي لك أيها اليأس ابتعد عني و كفاك تسلل وعبث لن تستطيع ثقب جوفي فأحيانًا تعكر صفوي لكني سأقف ماردا أمامك ماردًا باسطًا ذراعي لأنفض غبارك عني ولتعلم جيدًا سأجاهد نفسي حتى ييأس الصبر من صبري، سأمزقك إربًا.

لن أطيل عليكم ولتعلموا نعم توجد المظالم أينما وجدنا

ثانيًا و أخيرًا

لا تضجر تحت أي وقع حتى وإن فتحت المصاعب فكها واعلم في هذه الفانية أنت مثلها منعدم الهوية راحل بلا عنوان.

يا كرب لي رب

الملبوس

كانت هذه بدايتى واعلم بأنه يمتاز عنى

(١)

عراك نفسي ونداء شيطاني

- انتظر

التفتُ مسرعًا أنظرُ إليه لعله يعاود قراره ورحيق الأمل تسللني ونفسي تسرقني :

- أظن أنه سيعود عما فعل وسيعطيك قلمك وأوراقك

باحثًا عنه في كل الأرجاء، لا أجده، أين ذهب ؟ فراغ عابر فأنا وحدي !

رقبتي تخلت عن التكوين البشري وتلتف كالبومه ثلاثمئة وستون درجة كاملة في حركات ذهول أين رحل ذلك المعتوه ؟

لا يهم، اعتدلت جسدي لاعاود جلوسي متجاهلاً ما حدث ولك أخطو خطوة واحدة لأجده في وجهي فجاءَة ليرتجف عقار قلبي رعبًا معبرًا عن إرادة الخروج من جسدي الذي انتابته القشعريرة، ظل يحدقني بعينيه المتشكلتين لمدة تقارب الدقائق ليزيد من توتري ونفسي الهربه تحدثني من بعيد لا تريد الاقتراب :

- ماذا يريد منك بكل حركات العبث تلك ؟

وهو يقاطعها فإنه علي علم بما تقول ! ضحكات ساخرة تصدوا لها الأرجاء وتهتز لها البنيان وهو يقول :

- إياك أن تعبث وتستهزئ بأوامري أو تحاول حتي ترديف الكلمات

لهجه تحذيرية صارمة تزيد من الأمر سوءًا، صوتي متهدج منقطع الوصول إليه بعفوية مريض انقطعت أحباله الصوتية :

- لن أفعل ذلك لا تقلق

يضحك عابثًا مرة أخري ولكن هذه المره ضحك محمل بثلوج الأيس :

- أنتم تقلقون وتهابون بل ترتعدون أيضًا أما أنا فلا أملك قلب لتلك المشاعر البلهاء.

عاود الاختفاء ثانيًة تاركني لأبصر جلوسه مقعدي، تأخذ قدماي اتجاه الرحيل والارتجاف يصاحبها لكن التخبط يمنع اتمام تلك المهمة التي بادت شاقة، ها هي نفسي تعاودني :

- انتظر حتي تهدأ يا جبين ثم ارحل يا صغيري

لا استطيع محاورتك ابتعدي عني اعلم أني عاجز عن استرداد أرضي وموقفي لا يحتمل الصمود الذي لا امتلكه، في الماضي كنت أشاكسك وأناقضك في بعض الأمور فأنتي شريكة حياتي وذلك قبل حلوله ضيفًا بل محتلاً، معبرًا عن استسلامي لها التام فقد طب الزمن كفتك أنتي أيضًا فلتقولي ما تشائين، من نظري تحاول أخذ حقوقها أو ما سلبته منها يوما لتتبدل الأحوال ولكني لن أعيركي اهتمامًا ولن أعطيكي فرصه الهزء بى وسأرحل.

نعم الرحيل

تلاحقني تلك الثرثاره بكلماتها المزعجه الموقده للهيب نفسي لتنفث أنفي دخانها :

- إنه الآن يتراجع بمقعدك وأمتلك أوراقك، أراه يشرد بخياله ليعبر بكلماته ويتغني بها ويداعب القلم المحتل بين صابعيه وهو يراقصه يمينًا ويسارًا بين يديه ليسطع صوت الحبر في كيان الورق وفي النهاية علي الحبر أن يطيع.

حقًا استطاعت أن تفعل ما أرادت واشعلت نيران فكري ليثور جسدي مسرعًا مسابقًا للزمن لأنهي تلك المهمة، قد غربت بعد انتشار سمها في قلبي وهي تنتظر عراكي لكي تتمتع باهاتي وألآمي فهي تعلم جيدًا عشقي للكتابة لذلك عبثت بهواجسي في انتظار الحرب.

***

صرخة ترتد من باطن الأرض، صوت يدس الرعب فيك يهرتك أحبال روحك كأنه طوفان هائج منهمر أقسم بالانتفاضه، ترتعش أوصالك وتصطك أسنانك ليسمع صريرها ومنها يعلو الرعب بدرجاته لينقبض قلبك رغمًا عنك أنه الارتعاد وثورة الهروب من الجسد، تتسارع النبضات ليخفق ويطفو الصدر فالهرع صار نفسًا، يستقبل العقل الأمر ليعطي إشارة الرحيل للقدم لكن القدم تأبى معلنة العصيان فإن اتباع الصوت يثورها.

تجد ليلاً طامس مبعثر بنجوم منسدلة تحت أمر القمر الشيب، عتمة أشباح تسيطر علي الأكوان وعواء ذئاب لا يهدأ وصوت أوراق جافه تنكسر مثل فتات الزجاج وأشياء تزحف وضباب يسدل جلبابه.

مصطحب الرعب القدم كأب مُمسك بيد صغيره لكن الصغير يبكي والأب يعاند حتي يصل مقصده، تسمع ارتعاد بدن وانتفاضته حتي تجد بئر ابتدعته الطبيعةالطاغية، صخور متجمعة في إطار دائري أجوف يخترقه بعض الورقات الذابلة التي ألقتها الرياح بعيدًا عن أرضها وبعض النباتات الشاكة علي أطرافه، تعلوه غصون متشابكة من تلك الشجيرات العرجاء تلقي بين الحين والأخر بأوراقها الذبلة التي تظهر توقف نموها ومفارقتها الحياة حتي تلقي حتفها وهي في الأصل تكسو جسدًا غطأه الظلام، تراه تشعر بفقدانه الحياة تقشعر منه لتكثر تساؤلاتك وتبدو ملامح الاستغراب والاندهاش علي وجهك .. كيف أتي هذا الكائن إلي هنا ؟ ماذا كان يفعل ؟ ولماذا ؟ وهل هو الآن يسكن عالم الأموات أم مواليهم ؟.

في وضع القرفصاء يجلس ذلك العظم المستتر في لحم يتأكل، شاحب الوجه مرتعدًا في صمت وأنين يصدر منه بين الحين والأخر ليسمع أنفاسه المتقطعة وشهقاته المفارقة للحياة فأظن أن احد الوحوش قد هاجمه، إن معن بصرك فقد تري عري نحيف العظام يغطو عورته قطعة كتان متهرئه، مغمض العينين مرتعش الأطراف أقرع الرأس مجزع الذقن لا تستطيع أن تميز رائحته من الرائحه المقززة النابعة من أسفل البئر التي تصارحك بوجود أجساد عفنة نالها التحلل وعظام قد جفت مثل الأخشاب ولابد من وجود أشلاء مبعثرة فهي رائحة تجزم عليك التقيئ رغما عنك .

تنفتح جفنيه في ذهول لا تطرف ثم فاهه لتجد فكاً منخلع الأسنان غزاه الظلام منذ زمن لتبدأ الصرخة خط سيرها وهو يناضل الارتعاد بجسده بشكل مصروع، يتبدل الصراخ بالآهات

ومنها ينحل وضع القرفصاء مع تزايد الرنين بحبال ما تبقي لي من أمل وكأنها النهاية وفراق الروح للجسد ... لحظات فيها أصابته رعشة مفاجئة وفارت أوتاره حتي تخلي الهيكل عن تصلبه وأرتمي أرضه ليتخطفه السحق من مجلسه كأنه سحب من قبل المجهول وأعلن مع سقوطه الرحيل ليتسيد الصمت مرة أخري ويعود سكون الظلام محله من جديد.

***

عاودتني من جديد بريح حديثها المثرثر :

- اهرب أنه قادم إليك أنا أشتم ريحه، سيلعنك لما فعلت

أجاوبها بسخرية استنفار علي غير عادتي وأنا أبتسمُ :

- اهربي أنتِ وأغربي عن فكري ودعيني أكمل ما بدأت، أين الحين التي ستباشيرني بخير فيه ؟ أراكي تضيعين زمنك هباءً.

صمتت الأجواء لحظات لأكمل حواري مع نفسي :

- أرحلتي حقًا ! يا لها من معجزة ربانية.

تقاطعني سخرية الضحكات والكلمات المتباعدة التي استمعتها ولكني لا أبصره، أين أنتَ ؟ لماذا تتعمد مخاوفتي دائمًا ؟ أنا لستُ ملكًا لك كما صرحت لقرائي.

باغتني بنظرات جمرية صامتة، ظهر أمامي.. تلاشى... أتلفت حول جسدي بشكل دائري.. مجنون أنا !.. عاود أدراجه وإذ به يلتف حولي مرات وهو ناظرًا إلي فإنه يريد نفخ نيراني، خطفني فاهه بكلام غابر :

- أنتَ رفيقي أنا أحبك، أنتَ غبي

قاطعته هائجًا مكشرًا عن أنياب غضبي صارخًا في وجهه الأسود :

- أنا لستُ غبي مثلك سأسبك !

اشتعلت رأسه كوحوش مارفيل، اشتدت إنارة الغرفه فأظنني نلت منه ولكن شهب نيرانه تتطاير في وجهي بشظايا لاذعة :

- احذر وإلا تلاعبت برمادك، إلزم عباراتك يا طيني يا زميم النفس يا وضيع الفكر

انكمش جسدي مني رهبا كدت أن اشتعل بعد تلك العاصفه النارية وهي تبصرني وأنا أنال التهديدات بلا تدخل منها وعلي أن اتماسك أمامها كي أثبت ذاتي لها وأظنني تجرعت الفشل الذريع،فأنا أراها علي مقربة مني، صمت لحظات أثر الترويع وقد فاحت الريح رمادها ليعود من جديد ببرود الحرباء المتشكله :

- لقد نقضت عهدك معي وأنا أهوى ذلك

أحاول مقاطعته ولكنه الخوف جعل مني أبكم :

- أنا لم أنق .....

ردف إلي وجهي عابرًا جسدي لأشعر ببرودة الثلج وكأنني جمدت ليعاود الظهور أمامي مغيرًا نبرته كالحرباء :

- تعلم كيف تتحدث مع الملوك؟ وتعلم آداب الحديث أأنت روائي حقًا !

أومأت رأسي بالإيجاب الجبري وهو مستمر بتهجمه الساخط ومنه تخشب جسدي عنوةً عني :

- يا صغيري أخترتك لضعف كينونتك فأردت لك النجاح لكنك تعاند وحتي الآن لم تتعامل معي جيدًا،

أنا من راودت الملايين بل البلايين قودت معارك.. أشعلت منازل، لم يتغلبني إلا القليل وتوصلت أيضًا لبعضهم وحرمني الموت من البعض الآخر،

أنا محارب النار وموقدها وقائد أهلها

أنا ملذاتك يا دنيا

أنا الغرور والجمال والتعالي والكبرياء

أنا الشهوة

يتطاير في الغرفة من حولي وهو يشابك يداه خلف ظهره ليركز فكره وكلماته وماضيه مكملاً :

أنا الغريزة الحائرة

أنا مناجي الدنيا و ناصر الضعفاء

ومن هنا وهناك يقف أمامي ليشير بصابعه في وجهي مكملًا رسالته التعريفية :

أتعتقد بعد كل هذا سيأتي يومًا لأمثالك أن يختبؤا مني وفي غرفة مثل هذه .. و ببلاهةٍ تخفت الإضاءة وأخري تكتب كلماتٍ وتستدعيني

خلالها ولن أعلم مكانك... غباء البشر

يجانبني الجلوس ويضع يداه الهوائية علي كتفي ليوكزه كي التفت إليه :

- أنــتَ يــا صــديقي طيــب القلــب والفــتره، ســاذُج الفكــر وأنــا أحــاول تهيئتك

من جديد لتتعايش مع بني جنسك لعلي أخرجك من تلك الخلوة

الصماء مع الوريقات والأقلام، أعلم جيدًا أنني انتزعت منك عزيزٌ

وسأرده إليك لتكتب ما تريد ولعلك تخصص لي جزءًا حتى ولو

بسيطًا أكتبه بنفسي أتوافق على ذلك !

ناظرًا لي، ابتسم وجهي لا إراديًا فرح بقراره لأشبه طفلٌ أعطاه أبيه لعبته المفضلة، رفرف قلبي جناحية لأحدثه مسرعًا :

- بالطبع أوافق

طافت ريحة السوداء متشكلةً في صورة أيدى فإنه يريد مصافحتي فإنها معاهدة سلام بيننا، أمددتُ له يدي لأصافح رياحه ليبدأ الوفاق الجديد بيننا وجاءت كلمات التهنئة منه :

- سأكون عونًا لك وبجوارك دومًا، أتعلم يا صديقي من الأفضل أن

تعاود غرفتك المسلوبة تجاهي فلتسامحني بشأن ذلك.

نهضت مسرعًا ذاهبًا إليها وهو يثامرني :

- لم يخلو كتيب من كلماتي أو غزواتي أو أفكاري حتى وإن كانت كتبٌ

سماوية فأنا تاريخٌ لا يعلمه الكثير سأطلعك علي أولى كتاباتي التي لم

يرها قبلك ولا همسها طيفٌ ولا ريحٌ وذلك لتعلم أنك محبب إلي وأنا

أريد أن أُميزُك على سائر المؤلفين.

ردفت غرفتي لأعتلي عرشي المكتبي فأنا حاكمة الآن وعلي أن أُخافت ضوء أباجورتي قليلاً وعيناي تبحث عما كتب، إذ به يفتحُ أحد أدراج مكتبي ليخرج ورقةٌ مخطوطة وأظنها ليست كتاباته وكأنها من قبل آخر

فهي ليست من أوراقي المسلوبة بل هي جلد مخطو عليه بالحمرة بلغة أظنها تنتمي للعهود الأولي مثل السريانية فهي تشابه اللوغاريتمات المغلقة، نظرت له بعدما وضع الورقات أمامي ليظهر عجزي عن قرآتها لألاحقه :

- ما هذا ؟ أنا لا أعي تلك اللغة فلتقرأها أنتَ

نظر لي من بعد تلك الكلمات ضاحكاً ممسكًا إياها وهو يخاطبني:

- هذه يا صغيري الوصايا الشيطانية قد خطها أبي فهي أول ما أطلعت

عليه بعد اعتلائي العرش وهي عقيدة كل شيطانٍ وجنى.

***

إلى نسلي وذريتي

إلي كل مريدٍ قويٌ كان أو ضعيف... طائرًا كان أو غائصًا أو حتي بناء

منذ البداية وأنا أتلاعب في أجساد الصلصال حتي إن الملائكة قد خافوه أجمعين إلاى فقد سبقتهم النظر فوجدته أجوف لين الاهتزاز فشجعتهم علي الاقتراب منه " لئن سلطت عليه لأحتكنه،

أقربوه فهو أجوف وربكم صمد " نحن لسنا ضعاف مثل الخلائق نحن المتشاكلين الطائرين المتحكمين ولسنا المحكومين فأنتم عبيد أبيكم وهم عبيدٌ لكم، خدَمِكم وذلك بفِكركم.. اجعلوهم طائعين لكم.. اجعلوهم يسلكوا سبلكم ودربكم.

نحن أقوياء ببعضنا البعض وهم مشتتين مُقادين مُتفرقين ولا نهاب منهم إلا الصالحين الساجدين، أريدهم يخرون لكم.. يعبدونكم.. فأنتم دينهم ودنياهم.

أُنذرت من قبل رب العالمين وذلك جزاء عصياني للأمر المباشر، أنا لا أسجد لبشري أنا أفضل منه وأعلم منه فإن علمي يفوقهم بأميال ولقد لقنتكم إياه.

هم مُرادكم ليزنون.. يكذبون.. يسرقون.. يتقاتلون.. يحبون.. ويشتهون.. أخرجوهم من ديارهم غاوين، اعبثوا بهم كيفما تشاؤن فهم دُمياكم وأنتم الأعلون.

عوالم أرثكم

الثرى ملكنا والبحار أقدامنا والجبال أبوابنا إلا هي السماءُ فهي شُهبنا وحتفنا لا تقربوها واحذروها.

هذه وصيتي لأبنائي وتاليهُم والذي يندرك أسفلهم وأسفل أسفلهم وإن لم يكن إرثكم فهو ملك مواليكم وأبنائهم وتاليهم.

وأعلموا النهاية إني أخاف الله رب العالمين

"إبليس الرجيم"

كانت هذه الوصايا الثمينة لكل بني إبليس فهو إرثٌ لا يُقدرُ بثمن بأي الأثمان قط، مندهشًا مما قرأ علي لقد شتت فكري وعُصم لساني وشردت عيناي فقد تسمرتُ حقًا فقد استعصم عني جسدي.

يكرر كلماته فإنه يناديني من صحرائي حتي طنت أُذناي:

- فيما سرحتُ.

أستفقتُ من شتاتي لألملم فكري حتى لا أخطئ الإجابة وأنا محدقًا له:

- لا شيء.

يعاودني التحدث ضاحكًا عابثًا منطلق هواءً يجول أرجاء غرفتي وهو ملتقطًا وصايا والده يلتفها بحركةٍ دائرية قائلًا:

- أدرك ما تريد قوله وأتدارك شتات فكرك...

كاد أن يكمل حديثه لولا أنه استشعر بهاتف يناديه:

- أعذرني أخي الصغير إنني سمعتُ مناديًا ينادي ولا بد من الاستجابه، سأتيك سريعًا، أسألك الرحيل، وداعًا.

شرع في التبخر وكاد يختفي لولا أنني تفوهت بصوتٍ يحمل أطنانًا من الاعتراض على ما سمعته أذناي المشمئزة:

- فلينتظر المنادي.

توقفتُ علي أقدامٍ ثابتة ثم التفت إلي أعين الرجيم، وتحدثت بعقلٍ لم أملكه يومًا:

- من الذي زرع في عقلك التالف أن أدم خُلق ليكون إرث الملعون. لو تحدثت معك بعقلٍ أكثر وضوحًا واستخدمت نفس أسلوبك الخبيث كما أساسك الملئ بالضغائن والشوائب والسواد القاتم، لأثبتُ لك بأنك مجرد عدو لم تُخلق عبثًا ولم أُخلق عبثًا، خُلق كلٌ منا لهدفٍ يعلمه الخالق وحده، ولكن ما ذكرته الكتب التي تحمل الحقيقة دائمًا هو أننا لسنا إرث ولم يكون إبليس يومًا إرثًا، نحن أعداء، القلوب لا تتآلف، هي فقط تتخبط في معركةٍ لن تنتهي، إلا عندما تبتلع الشمس الأرض.

- في البداية، عندما انشق الكون وانفجر وتولدت الأرض، كان هناك ملكًا خُلق من نار، وتسبب في مجئ الملعون، كما تنعتونه أنتم، ورغم أنه ملعون لم يقترب أحد من الله مثله، لقد كان طفلًا ضعيفًا، لم يكن يعلم بأنه سيكون أهم رمز في الكون، صار تائهًا بين الموت، لم يتم اختياره، نجا، سحب نفسًا بعد أن اخترق بحرٌ ملئٌ بالأشلاء المتبعثرة، وقد كان النفس الأهم في حياته، نفس الحياة، حين وقف أمام ذلك النور الذي سحبه من يده، لم يكن مدللًا، فقد قاسى وعاش حياةً مليئةٌ بالعار، والدماء، والفساد، اعتقد بأنه مقدرٌ له أن يكون مثل تلك البيئة التي نبتت فيها زرعته، ولكن قلبه كان هو نقطة النور التي شقت الممر المظلم حتي التهمته، صعد، ولم يصعد غيره، كلهم انتهوا، من مات، ومن هرب، ومن تشرد، لم يستظل بالظل إلا هو، نشأ في كنفه، تعلم ما لم يتعلمه أحد، حتي الملائكة لم تتقرب مثله، ارتقى، وصل إلي مكانةٍ لم يصل إليها مخلوق في تلك اللحظة، ذلك عصره، عصر النار التي خلق منها. القدر لم يكن في صفه، خُلق ليكون حاكمًا.

وفي يوم وجد نفسه يتحدى ذلك المدلل الذي خُلق ليستظل بتلك الشجرة التي لم يُخلق مثلها، استحوذ على كل شيء منذ لحظة البداية، لم يقاسي، لم يعِش في تلك البيئة التي خرج منها الرجيم، لقد فُضلَ عليه، رغم أنه لم يستحق، هو الخادم، العابد الكامل تمثل في ذلك الملعون، أما المدلل لم يكن سوى قطعة من طين لا قيمة لها، ازدادت ازدهارًا بتلك النفخة التي استحقها إبليس، الهبوط قدر لا فرار منه، ولكن إن لم تكن الجنة قد خُلقت لعزازيل، فالأرض ملكٌ له، وكل شيء قد هبط، أو خُلق، أو نبت علي الأرض هو إرث إبليس.

تلاشت جزيئاته، لم أعد اراه فقد رحل بعدما اختتم كلماته المتراصه بسوفسطائية الغرور والتعالي، فإن الكبر يمتلك ذريته أجمعين، غمر جسدي الإرهاق، تمللت أطرافي حتي سار الكسل بين غشاء أوردتي ،ومنها ترددت منافذ عيوني ، سقط مني القلم كما هوت رأسي بين راحتي ، سبح فكري في بحر النيام وهو النوم حال أمرًا.

***

أذنت السماء بتحليق طيورها أسرابً منظمة التباعد في خلفيةً يطفوها أشعة الشمس الحارقة التي تلاسع الرمال الناعمة حيث لا زريع ولا وليدٌ يبكي ولا شربة ماء ولاخطى منغمسة لأي زاحف فهي الصحراء الجرداء.

تبصر وميضٌ قادم من بعيد مقبل من الثرى ليخترق تلك الأشعة اللاذعة، يُطفل ذاته واضعًا ذاته في رحم المشهد، تبعثرُ الرياح الرمال كيفما يحلو لها فتزحف حبيباتها متعمدًة تغير ملامح لوحتي فإنها تتجمع في جانب وتحفر أخر لتشكل اعوجاجًا.

أمام تلك العاصفة شبيه جوادٍ مقبل فإنه قائد ويتبعه جنوده، تعنف الرياح الرمال بصرامة عاتية فتشابكها عنوه لِتُخلق الدوامة الترابية لتعكر الرؤية من حولها، لحظاتٍ فيها تهدأ الأجواء، جوادٌ ينبثقُ من جوف الدوامة يعتليه فارس لم تبدو ملامحه بعد أنه سهم قد صوب لهدفه بقوةٍ خارقه، ما هذا؟.

إنها فتاة يتطاير شعرها الأحمر عاليًا، يرتفع وينخفض جسمانها ملازمًا خطوات جوادها الثاقب التي تعتليه، يصاحبها ذئبين يمينًا ويسارًا كالحرس، ما هذا أيضًا؟، زاحفًا يموج جسده خارقًا رمالي، إنها حيةٌ قاتمة السواد تسابق الجمع معلنَةً القيادة لهم، فهي لا تبدو زاحفٌ طبيعي.

ما هذا التآلفُ الغريبُ من نوعه؟ أنا لا أعي ما أرى ولكني لابد أن أنطلق معهم.

تغرز خطواتهم رمالي تاركة الأثر ورائهم لكي تمحوه الرياح فيما بعد وهم في سباقٌ مع الزمن، فالكل مسرعٌ لا يلتفت جانبيه فإن هناك ما يشعلهم جمرًا، تظهر نقط سوداء تحلق سماءً، أسوار مدينة مقبله حتى تشهر عن أسوارها العاليه العتيقة التي غلبتها الصفرة فقد شيدت من حجرٍ رملي لا يتأثر بتلاعبات الطبيعة فإنه أملس ناعم يزيد بريقه تفاعلًا مع أشعة الشمس الضاربة لِتُغفل عين القادم، يتوسط السور بوابةٌ خشبية سميكة، لا أدرك من أي خشبٍ صنعت فأنا لم أراه من قبل! ،حفورٌ هيروغليفية عليها، متلونة بمزيجٍ بارق بين الخضرة والصفرة معًا لتخلُق حروفًا مبهرة الرؤية لتقول" ادخلوا مدينتي، في ضيافتي، ولكن احذروا غضبي فإن نيراني حارقة بارقة".

تخترق الخطوات تلك البوابة المنفتحة علي مصرعيها غير لافتة لذلك حتى لم تُهدِّأ من سرعتها فالأغلبُ هى من أهل المدينة ولكن أين حراس تلك الأبواب؟ لا أراهم .

تتخابط الأقدام كالمطاريق عازفة لحن الغضب علي الطريق الحجري المتعرج مباليةٌ لتلك المنازل المتفرقة جانبيها والشجيرات المتوزعة من حولها ولابد من وابلٍ أصابها، دمعتُ أوراقها أرضًا ليعبث بها الزمن وهي من ورائها جزوعٌ عرجاءٌ منتظرةُ بلائِها علي يد الحشرات الناخرة البطون، تنخر البلاء لتنهي الحياة المحملة بالآلم، فإنها تبيد صراخها المكتوم لتنهي عذابها بالتآكل والسقوط هشًا، موتٌ بطىء الخطوات، هل من مغيث؟.

تقترب رؤية السرب الأسود المحلق أعلي بنايَة شاهقَة بعيدًة كأنها يتنذر بشىء ما، أتوقعه ينذر بشؤوم قادم، تتراص المنازل و البنايات منها الفاتحُ مصراعيه و منها المنغلق.

أبصر أُناسًا مهترئ الملابس هشة الجثمان يبدو عليهم ملامح البلاء و العبوية يكسوا عوراتهم أقمشةٌ متسخة غير منمقة تشبه مخايط الخيش و الكتان، أقله مشتتين شاردي الفكر ناظرين أسفلهم كأنهم يبحثون عن شئ فقد منهم ،منكسرين مُغلبين علي أمرٍ مجهول، لاينبع منهم ملامح الحياة، إنها مدينة أموات بُلهاء ضعفاء مستسلمي و مكبلي الروح.

يسهم الجواد مقصده و تتفارق البنيات من حوله حتي يتسع الطريق فإنه يرحب بالقادم بطريقته الخاصة، يعلو صوت الغَواء المُقبل من السماء من أفواه ذلك السرب، موتٌ قائم فهي غِرابٌ كلحاء، يصرع الصوت أُذنك أسفل هذا القصر الشاهق البناء ذو الأعمدة الدواره اللتي يعلوها أفرع اللوتس لتتباهى وهي تحمل الأعمدة بين راحتيها، غِطاءٌ كاسي لما داخله .

تحين لحظة تهدئة السرعة، تسمع صهيلُ الجواد المتباهي بوقفته الشامخة علي قدميه الخلفيتين، رافعًا الأماميتان، مُبرز فروسيته كأن لا وجود لغيره في هذه الأراضين، ممسكًةٍ لجامه في لمحةٍ مهارية عارمة طاغية لتشبه محارب الإسبارطة أحد الأساطير الزمنية .

تترجل بعيدًا عن الحصان، شابةُ في ربيعُ ندرتها، بيضاء الوجه، بارقة العينان تهاب النظر لهما حتي لا تقع اسيرها، ذات الأنف الوردي و الفم العنقودي، يتطاير خلفها شعرٌ قاتم الحمره طويلٌ منسدل يلامس صهوة الجواد مستتر في خيوط حريرة يتسارقه بعض الشعيرات لتجمل الاكتاف العارية، يزين ذلك القوام اليافع الخاطف للقلوب والأبصار، ملابس جلدية سوداء تغطي مناطقه الفواحة الخلابة المعبرة للأنوثة المتجبرة فهو أُعد خصيصًا لهذا الجمال، حوريةُ تشيبت الأرضُ لجمالها، تُنصب من قبل السماء أميرةٌ حاكمة لكل الحوريات، يبدو عليها ملامح الملكية فهى خليقة ذلك لاختلافها عن سائر مدينتها لا أظنها تفاعل أدمي بل ملائكي، يطفو بريقها قلقٌ عارم لم تسطع بخنجرها المتلاصق بحذائها قتله والتخلص منه.

يلامس الخفاء أقدامها هائمًا غارقًا في بحور رونقها حتى لا تتألم أو تتخبط أقدامها بل يتمنى حملها من على الأرض جاعلاً الريح بساطًا لها، تقفز من أعلى جوادها في تمكن محارب جسور لتستعرض قواها، قفزة بهلوانية عابرة بها لسلالم هذا القصر، مخترقة أبوابه المنفتحة في فزعٍ، في عجل، رفقائها بجوارها لا يبتعدون عنها.

حربٌ فائرةُ داخل هذه الأنثى، تصارع النبضات، رياح الأنفس المذعرة المرتجفة لتنفخ الأوردة بدمائها الغائر ليطمس خضارها السابق، تحول الجسد الأبيض لجمرةُ شائكة الحريق، الكل يتسابق الوصول.

تماثيلُ بازلتية الحجر شاهقة الارتفاع، سوداء اللون منحته ملتصقة بالجدران توصف عصرها القائم متراصة علي الجانبين يتوسطها بعض الأعمدة المتشكلة في اللوتس تحمل من فوقها الغطاء السقفي، يتخلل تلك التماثيل مشاعل خشبية منغمسة داخل محفر صخري، تجد أمامها حورس السلام ناظرًا بعينين متسامحتين يتوسط حديقةُ دابلة فرت منها حياة الخضرة من خلالها تحوي ببصرك معالم المدينة، يابسةُ ناعمة الملمس جلمودية تفوق ببريقها الكريستال ينعكس عليها رسومات السقف الذي يكسوها أي الأزهار المترابطةُ المخططة بمياه الذهب في شكل دائري مما دلّ علي إبداع هذا العصر وتفوقه في المجال الفني والمعماري، تبصر صغيرات المسلات عن شمالك إشارةً لممر الغرف الداخلية الخاصة بالتعايش والخدم.

غرفة تشبه غرفة الاستقبال فارهة الوسع، أمامك ثلاثة مقاعد ملكية متشابهه جدًا من حيث الشكل في ما عدا أوسطهم هو كبيرهم يعلوهم وهو مخصص للحاكم، متكئة الأربع متخذة أقدام أسدٌ غائر، ووجهه يعلو الظهر طغى عليهم الذهب بجوار تلك المقاعد، تردف تمثالٌ عن يمينك وأخر شمالك لمحاربين يبدو عليهم الرعونه،

كلٌ منهم ممسك رمحه في يده اليمني، وتتخطى شمال قدمه الأخرى، غُلف بالكامل بأسود البازلت القاتم، ورمحه يغلب عليه صفرة الذهب، ترى في أعينهم ملامح السخط، ويعلوهم كتابةٌ بارزةٍ متلونه كبيرةُ الخط، لتبعث رسالة توعيد للجميع فمن خلالها تقرأ " أضعُ الأعداء أسفل قدمي"، يحملُ هذا الترهيب طياتٌ كثُر منها تجبر الحاكم أو حذره، منها أرستقراطيتة في الحكم أو ديكتاتوريتة، تجد جانبك الأيسر ستائر منسدلة أرضًا تداعبها الرياح فتتراقص يمينًا ويسارًا كيفما يحلو لها ولهواه، في الجانب الأيمن بعض المقاعد المتراصة صامتة التصميم صُنعت من الخشب المطلى بالذهب، ويعلوهم مكتبة صغيرة ملقى فيها بشكل عشوائي ثلاثة او أربع برديات، عاود بصرك سريعًا إلى تلك الستائر فلتزيحها جانبًا لتنظر ما دفنته الطبيعة من جمال حوضٍ مائي واسعٍ يبدو عليه التعمق، مرضت مياهه بالركود، متراصٍ بالأشجار الدابلة في آخره، تبصر مسلتان فارهتا الطول قيد عليهما إنجازات الحاكم، ولكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن فقد أشبه القصر جنة أرض خالية حكمتها الأشباح والمردة والشياطين، بعدما سكنتها الأتربة وبعض الحشرات ونسجت العناكب شباكها لتبيح ملكيتها وحكمها الظاهر لهذا المكان فما أشبهه بعروشٍ خاوية.

انتظر إنني أسمع طرقٍ قادم، فإنها خطوات متعجلة تسابق ريحها وكأن وحشي يلاحقها يريد افتراسها، تزداد الأنفاس وصنتت لها مسامعي ورأتها عيني، إنها سيدة متخطفة الوجه، يبدو عليها الذعر من أمر ما، أإنها من خدم هذا القصر؟ فردائها الكتاني يبوح بذلك، ولكنها كبيرة السن، تحاول مسابقة زمانها لكن قواها لن تتحمل ذلك، فوجهها المشقق يفشي سرها المتعبد الطائع لأوامر سيدة، ممسكةً في يدها قارورةٌ مغلقة بما تحمله من سائل إما أن يكون ماءً أو دواءً، مازالت تعافر حتى نخر الشهق سِراعها فتبطأت أقدمها لتقاوم شقواها ولا مُراد إلا مرساها.

خفقان واضطراب يحوم بالأجواء داخل هذه الغرفه، تجد أباريقٍ وكاساتٍ متناثرةً ملقاة ،وبعضُ السوائل منسكبة أرضًا، فهناك سريرٌ بالآه الزمن بالأوبئة حتى مرض

فصار لا ينتمي لهذا القصر فكأنه بعث بالخطأ في هذا المكان ليهزمه التأكل والقدم، تردف ببصرك أحدهم مستلقي عليه ينازع ويُجاهد جسده فيخافت أوجاعه محاولًا الصمود ولكن المرض غلبه ليزيح غطاء منامه معبرًا عن إمراةً شيبة العمر غلبها الهرم والكبر ولكنها حافظت على سحر من أسرار جمال المرأة، العين البحراوية الزرقاء، لكن خطوط العمر غزت وجهها أجلًا لتمحق معالم شبابه، جثمان منحنى مستلقي وأوجاعٌ متزايده فأهاتٍ جاهرة الأنين محاولةً النهوض، أصابع مرتعشة وانتفاض الجسد محاولاً البقاء، الأزمة تتغلبه فتحاول وتحاول حتى تمسك ذلك الغطاء حتى تلقى به بعيدًا عن جسدها المهزوم، تجاهد اعتدال البدل حتى تستطيع، ومازالت اليدان ترتجفان حتى ترفعهم عاليًا في مستوى بصيرتها فهى تتحسس الهواء ما دلّ على ....على فقدان نعمة البصيرة يا لهول الأيام فهو جسد يبلى وجمال يفنى والموت مغني في ميدانه والكل ساجد من حوله، تصرخ بنداءُ الاستغاثة، و تضع قدم أرضًا والثانية تأبى وتقسم بذلك فهما متخاصمتان، فهذا ليس بالوقت المناسب للعناء فلتقوي كما سابق لكن لا بديل،

تخادعها هذه المرة معلنة الهرب من الأوامر، تخبط بالهواء، تسقط أرضًا، مكبة على وجهها ويدها تمنع اصطدام الوجه، والجسد هوى وارتضم لتنفجر الآلام والآهات، الشهقات والمرض لا ترحم تلك العجوز، السقوط لا قلب له لا دين له، الموت ينادي وجسمانها يلبى النداء والقلب رافض والفم صارخ والاحمرار طافح في هيجان ثورٍ أطبش لا هدف له، يبدر الجسد انهار العرق المتراكمة فيأن العناء ليغمر بعد السكون طوفان أمواج طائل كاسح لما يلاقيه، يأمل اللسان النداء فأضحى الصوت فحيح مستسلم للفناء والنور صار خافت، أومأت الرأس بالانهزام ويائسها خاض اليابس.

تلهثُ أنفاسها لتُبصر سيدة القصر ملقاة كدمية في تابوت عفن، تهرول صارخه بصوتٍ مرتجف:

- سيدتي

عتم وجهها بالسواد فلا مجيب لندائها لتعاود في نبرة مرتعشةٍ من جديد :

- ملكتي أرجوكي أجيبيني، ليس لي سبيلٌ في الدنيا دونك، أجيبي خادمتك المخلصة.

ولا حياة لمن تنادي، تجثوا على ركبتيها لتقارب وجه ملكتها حاملًة إياه بين راحتيها لتسكن أعلى قدميها، تحنن جبينها، تجفف العرق المتدفق باطرف إزارها المهترئ محاولًة إفاقتها حتى بدأ الجفن الاستجابة لكنها استجابة ضعيفة الحركة، العين تجازف بإزاحة التلاشي، العقل يعقل الإدراك والتذكر، الجسد مستميت متلاصق أرضًا.

تمسك بإحدى يدها تلك القارورة فاتحًة إياها واليد الأخرى تجاهد فتح الفم المنغلق بمتاريس، بدأت الرأس بالاهتزازات الرافضة، والعين محدقه لما يصير ولكن لا حول لها ، العين الأخرى تحاول التغلب وتثبيت الرأس، العقل أدرك شيئًا خاطىء يحوم، الفم أصدر قراراته بأنين كاتم وإغلاق الفك لتتخيط الشفاة ليعلن حربه الباسلة.

تلتفت يمينًا ويسارًا ويتجش الصوت فتحول لشخص أخر مهمهمًا في غضب يفشي بركانًا خامدًا:

- جاء ميعادك سترحلي لأنفذ وعدي لكي.

اقشعر الجسد والدماء فرت والعقل مشتت يحاول حل الموقف، ليبرم الزحف واليد مانعة.

تعال صوت الأقدام، الخطوات المتطارقه تخترق الغرفه اختراق الرياح بدون نذير.

تبصر أمها ملقاة أرضًا وتلك الخادمة تمسك برأسها بعنفوان زائد، تصدر فرمانها فورًا وهي تليح بيدها لذئابها بالنيل من تلك الخادمة الملعونة،صارخة:

- اقضوا عليها ولا تتركوها.

تنهض مسرعًة مضطربة الأوصال تاركة رأس ملكتها لتسقط من بين راحتيها لترتضم أرضًا، تدعوا الأرض بابتلاعها خفيه فإنها بصرت الموت الحالك، تنغرز بأقدامها ضاربة الأرض لتبرق رعدات بصرها وتقهقة بصوت شيطاني يشيب منه الولدان وهي تقذف

القارور من يدها لتصطدم بالجدران منكسرة مطرطشة بما فيها وهي تقول:

- لا مفر، لا مفر مني وإلي.

يخططون الأرض بمخالبهم الحديدية فهم يسنونها للانتقام، السمع والطاعة، يهمُّون القفز كي تُأكل الوليمة.

تخر القوةُ هباًء بعد تلك الكلمات، بعدما حلقت الرؤية بعيدًا وقبل أن تفقد التوازن لتسقط أرضًا مغشيًا عليها، تهمس بنبرة خافتة النبض بعدما رد إليها جزء من صوتها :

- هارودِس، صغيرتي

تلتقط أمها من الأرض وهي تزفر بالدمع المحرق لذاته، الدمع الذي يحرق الأراضين السبع، الدمع الذي تقف له الدنيا خوفًا ورهبًا، الدمع الذي عاقب يعقوب وكان راحته في ذات الوقت.

من قبل أن تبدأ الملحمة ألاحت لهم بترك المعركة لتعدل عن قرارها فليلهث كلُ منهم قدم الأم التي تجابه الموت وحدها، في محاولة لتخفيض حرارة جسدها الموقدة، تزعق وهي تردف قبلتيها باحثة عن أفعتها بصوتٍ صاخب:

- أحضروا لي ماء.

في لمح البصر وهم يلهثون الاقدام، وقف بجانبها رجل يرتدي ردأً أسود يغطي وجهه بقنصلوه سوداء ممسك بيدٍ ممددة قارورة مياه وباليد الأخرى عصا خشبية الصنع يتكأ عليها مما دلّ علي انحناء جسده وهرم كفة عمره.

بينما الرؤية تجاوب والدم يعاود مستقره والبرودة تسكن الجسد ليهدأ، تبصر الخفاء الحامل لقارورة المياه بيدٍ ممدودة ،هي غير مباليَّة مستنكرة فضيق أنفاسها تحكمها، تهدأ الرعشات والشهقات لكن الجسد مرخٍ تمامًا غير مبالٍ لأي انفعال وكأنه ليس جثمانها فهو رفض الخضوع لأوامر العقل والاستجابة والكلام قد اتخذ قراره.

يفرغوا الرفقاء من عملهم ليتخذوا وضعية الجلوس الشامخة الشهيرة لهم وهي طباب نصف الجسد الخلفي أرضًا والنصف الآخر أمر أمامه، هي بجوارهم تلتقط القارورة المنفتحة، تلامس رأس أمها بحنانٍ باسط كفيه لتُقبل فم الأم فم القارورة في عنفوان زائد، ترتشف بعض الرشفات ومنها يوافق الجوف بذلك الأمر وينفر بعض من القطرات لتلقى أرضًا، تسترجع أنفاسها لتشهق وترد نافخة وهي تتأوه بصوتٍ غلبته الحيلة، مغرورقة العينين :

- حبيبتي هارودِس

تقاطع صوتها ملامسة صغيرتها برفقٍ ناعم لوجنتيها، تكمن راحة الأنفس وطب الروح في مسح تلك العيون من تمخض نهرها، تلقنها بدموع قد صلبت وتحجرت:

- اهدئي يا مليكة قلبي يا هردِمس عمري فأنا أثنوا الآله على رؤيتك واللحاقُ بك كاد قلبي يحترق خوفًا وقلقًا عليكى.

تزافرها بأنفاس متلهفة النطق تتهدج بصرير الوتد الميت:

- اسمعيني جيدًا بُنيتي فأنا لا أقوى الحديث والجسد أصبح كهلاً، أنا أحتس الموت فإنه الأجل.

تسرق ابتلاع ريقها لتكمل:

- رسول منامك هو أبيكِ الحقيقي وليس زويسر الملك.

تبرقها بوجهٍ اعتلاه الإندهاش وملامح التعجب سادته والنهر المتحجر لاطمه و الأنفاس ترادعه، تحاول الصمود والمسامع أصعب رعدًا على قلبٍ ينكسر، القلب هو المسيطرُ والسمعُ أُذن صماء.

***

(٢)

"إعلامٌ جائر كاذب يُضلل قارءه من أجل زيادة المبيعات

وعلمٌ تائه حائر بين الاقاويل والاشاعات"

***

- هائمًا في منامى مرتعشَّة أجفانى تنتفض رأسي بين راحتي ممثلَّة أحضاني، هناك من يلاحقنى في أحلامي، كابوسٌ هذا يحاوطني رائدًا في إفزاعى، نذير الحرب رائجًا فى رأسى يزيد من عمياني، يبدر وجهى بشدة عرقه و الغضب يحوم أصالى، ترتعش يداى فجاءًة لاستفق من صراعى وأأمر قلبى يهدأ لتبصر عيني من أمامى.

- أبدر أول وميضٌ في ذلك الصباح الجديد ويداى تفترك عينى كالممحاة فهي عادًة إعدتها ولاحقها أجيال من ورائى، أزيل عماص نومى لأردف هذا جليسٌ أمامى، يحدقني، إنه بخفاشه من كان أمامى وحينها أدركت سريعًا الهواجس والمخيلات التي كنت أحتلمها فسببها هي أنسته مكانى، إرساله لمن يعاركني فهو نداءُ شيطانٍ لإيقاظى و ها أنا قد استيقظتُ كما هو دعانى يا ليته تركني قليلاً فإن جسدي يعاني.

- يحدج بي بشكل صارع للقلوب هل له محادثتي؟ أيلاعب صغيره الجان أم ماذا يفعل؟ ، لوحت يداي عفويًا كي ينتظر حتى أستفيق، ومن بعدها وضعت إبهامى علي فمي كي يصمت قليلاً، لقد خانني التعبير، إسترجعتُ حالي ما تلك الجرأة التي اكتسبتها؟

أظن الغفلة تمكنت منى وهو لم يرى ما بدر منى وهذا ما أقنعني به وجداني، نهضتُ من مقعدى متجهًا إلى خلائى أضرب بيدي الماء لألطمها بوجهي فيكتسب الوجه البرودة من بعدها ويبلغ جسدي ما حل وجهى لتنتبه كافة الأعضاء فالعمل بات نافذًا وعلي الكل الإنصات، استنشفتُ حالي من تلك المياه التي جلدتنى

بقطراتها بتلك الفوطة التي تفاتل منها بعض الخيوط عنوًة والآن أستنشق الهواء المندى في ذلك الصباح.

خرجتُ متجهًا إلي موضع إعداد الفطور فهناك مشروب الصباح وأنا أفضله وهي عادتي اليومية لا أجليها أبدًا فذلك المشروب هو الصديق المقرب لوحي أفكاري، أنتظرتُ مرور بعض اللحظات وقد أعدته وتملكته يداى ومنه تتطاير الأبخرة الدالة علي سخونته معلنةً تحررها التام من كوبى، تتخذ أقدامي ممرًا لكي أصل إلى غرفتى ومنها تتأمل عينى الأرض حتى عثرت على جريدةً ملقاة وقد استقر مسكنها أسف قدمي وانتشلتها يدى من موضعها، أكمل مسيرتى إيابًا إلي مقعدى فهناك من ينتظرنى تريد استماعه أذنى فهل له من جديد؟ أم بات الأمس أمامى!.

أنه متكأ موضعى لأريح بالى وأجلس أمامه علي أريكة جلدية سوداء مريحةً لجسدى وهة صديقة زمانى أياماً كنت أصاحبها وتصاحبنى هى فى منامى، تعلو قدمى الأخرى والكوب أسكنته أسفل أقدامى أنظر له بتمعن وهو يناظرنى حقد وجدانى، باديًا ريح كلماته وأنا صاغٍ بأذان:

- عِمت الصباح يا صديق، بالأمس جُئتك وجدتك غاطسٍ فى بحر منامك وتركتك منها تستفق.

ينوّه بكلماته عن صداقة لا أتداركها كيف يحدث هذا؟ فأنا لى عالمى الخاص وهو بالمثل مالكًا عالمه، لا أظن معادلة التوافق ممكنة معه، لم أسمع عن تلك الصداقة من قبل هل ذلك يحدث حقًا؟ أينعم اعتدتُ رؤيته عنوةً وسمعت كلماته كرهًا وهو قلبى يستعيد مركزه فللخوف الآن لا أبالى، لا وفاق بيننا فرأيه لا يهمنى، أفرض علي شفتي بسمَة زائفة أضايف بها نفاقى له حتى يُكمل ما جاء من أجله فأنا أريد الاستمتاع بمشروبى والقراءة فى الجريدة والاستلقاء لا أريد الانصات لتفهات ذلك المعكر لصفوى فهذا ليس بوقته، الآن هو وقتى الغالى.

انتظاره وصمته كان الأعجب في انتظارى، أرتشفتُ رشفة من كوبى ليكمل فأنا لا أبالى فحديثه لن يثمر ولن يغنى من حالى، تعتلى وجهه ضحكًة يومئ بها أفكارى وأنا مازلت ناظرًا له غير مستنكرًا فهذا جديد أحوالى فشجاعة قلبى قائمَة وللمهابةُ مكانًا ثانى، رحل خوفى عنى وقلبى هو الجانى.

مازالت نظراتي زائفة الكيان، يتنحنح صوتى ليقاطعنى مكملاً:

- هذا يومٌ جديد به عرضٌ فريد سيرضيك ويعطينى فكرى الرشيد

زال عنى تركيزى الزائف بعد مسامع كلماته المتراصة قد استطاع بها أن يثير فكرى ويفور بها وجدانى، ذكيًا حقًا فمُه يثبت رواد أجيالِ، الآن محدقًا في انتظار مشارف كلماته فلينهى سريعًا فلا أحتمل الانتظار، أيذيع نشرة التاسعة أم أنه قرار وزارى، قاطعنى بغدير الصمت بعد تسارق النظرات فإنه ينذرنى بجيش صارم من الكلمات:

- حقك حقى فالأمس كان ملكك الآن أصبح ملكى، انا لست مغتصبًا قُدت عوالم فى لمحى والقلم طريقٌ عابر إن كان يعود بنفعى، قليل الكلام دلّ علي حديثٍ صار عهدى وكثيرة لا يلام والثرثرة ليست نهجى، تشتهون الأثام والكبر والتحدى، الحب نبعٌ سام يستقتل القلبِ، يا كاتب الأقلام في روايةٌ لا تُجدى أتُنافس ملك الجان على عرشٍ لا يبدى.

الآن

سأريحك من كل ذاك بحلٍ وردى، اكتب فى أوراقك سطور تُعدى، سأخطو ذِكرٍ شامل لا يمس الهزلِ، يعود علي قُرائك بالنفع الأذلى فأنا حقٌ معلن وأنت حقٌ زيفِ، فى آخر كلماتى لا تذكر نسلى فيأتون عنوةً من حيث لا تدرى وضرارا تلحق ضُرك من قلمك الهشِ، إتقى شر رضيعٌ يهابه أسدِ.

توج الصمت حاكمًا لبرهة من الزمن وأذنى تنادى كلماته المتغنية فى اشتياق لاستماع المزيد منه ليشبه فنان مغمور جمهوره يناديه طالبًا استماع مزيد من أغانيه، أريد أن أصفر له على هذا الأداء الرائع يا لها من كلمات! كيف توصل لذلك؟ لو كنت مكانه لأستغرقتُ منى الكلمات ليالى لطالما توصلت لها ولتدربت على إلقائها أيام على أيام حتى تنشد بذلك الشكل، تسمرت ملامحى لا أقوى على التعبير لكن يداى تريد التصفيق له بحرارة.

أومأت باهتزاز رأسى متداركًا ما قال ولكن ذهنى بات مشتتًا من تعويذة كلماته، لقد أرسل سحر لا ينسى والناتج جف حلقى وعجز لسانى عن النطق، بأى حال أريد استرجاع وعي، لمحةُ وفك

قيدى ورحل عني عجزي ووجهه هو ضاحكًا ساخرًا لملامح بؤسى فهذا ليس مؤلف أو ناقد أحاوره بقلمى ولا أملك عصا أشهرها لاستعيد نصرى فهذا يعتد انتصار ساحق لا يجرؤه قلمى حقيقةً أوضح فرقٌ شاسع لابد أن يحترمه فكرى، هو مريدٌ ساحر وأنا مازلت عبدٍ حائر وبأى اللكنات هو أفضل، أحسستُ بوجودى داخل ساحة نزال عاتية والجماهير حارة منادية فكلماتى تحمل سيفها وأبياته تتعارك برماحٍ حامية، ظلم! قتال! فباء فوزًا عاليًا.

أردت استرجاع ما هُجر منى لأستعيد كرامة جملى ولكنها محاولة فاشلة واستسلمت لها بصوت منهزم خافت مهمهم:

- سأقرأ الجريدة ولك أن تكتب ما تشاء.

لم يرد لى خبر، مهتمًا بكتاباته لتبدأ لحظات خلوته وأنا غير مباليًا له ولكن كلماته مازالت تلعب مباراتها في ذاكرتى سأحاول التجاهل فيداى منشغلة الآن في تلك الجريدة تقلبها ذات اليمين والشمال لعلى أجد خبر يجذبنى، ووقعت عيني على ما كنت أبحث عنه.

***

ترويض البشر

هناك فن مُعتم هو فن الترويض، نعم هو فن ترويض الدُمى، الطفل ليس غبيًا عن ترويض دُميته المفضلة قبلما يهترئها وبالنقيض هو أعلى ذكاًء من أى كائن وجدته أرضًا وهي ساكنة بين يديه لا حول له ولا قوة، خاضعةً مستسلمةً ينخرها من أعلى وأسفل ومن جانبيها حتى يظهر أحشائها ليدرك روحها نعم توصل

الصغير لاستدراك الحقيقة الخفية وأنتم مثله تمامًا تداركتم الروح أيضًا ولكن هذه المرة تختلف عن سائر المرات فإنها سفسطائية الفساد وعصمتم أعينكم عنها، لم تكونوا صالحين مطلقًا كما ظننتم بل أنتم متمثلون في ذلك، أضللتم طريقكم حقًا! أظنه ما ظننتم فألقيتم أعباءكم وطغيانكم فى جعبتى وها أنا استقبلها بروح سمحه ولا أبالى.

توسوس لكم أنفسكم وأنتم في وعيد ذلك متمنّين راغبين منتظرين حتى أبث أنا الفكرة فتتخذون أنتم السبل والحيل والتفنن لاستخراج إبداع الفكر فسخيتم بعطائكم وحقًا لم تبخلوا لتخرجوا النهايات السعيدة لى.. أكافئكم.

إذن الآن أدرك كلٌ منا دوره الحقيقى، أنتَ متوعد متربص ونفسك توسوس وأنا مبثوث وأنت منفذ، أنظر بعين علم رياضتكم الخاصة بكم ذُكرت كلمة أنت مرتين ونفسك هى ملكك مرةٌ واحدة وأنا ذكرت مرة أيضًا إذًا كيف يفوز واحد على ثلاثة، هل هذا يعقل؟ أم تُشكك في رياضتكم! فهذا هو المعصم المطلوب إزاحته الجبرية.

لا تتبع أسلوب النعاج تحاول التجبر وتحاول العصيان وتعصى راعيها وفى النهاية تبرك وتخضع أرضًا فلماذا كل هذا العناء؟ فلتكن صريحًا مع نفسك.

- اتشعلون المنازل حقًا ! لماذا تفعلون هذا بنا ؟

نظر لي غفلًة وأنا أقاطعه وكأنه مُذهل لما أقول، تبدلت مراسمه ليبتسم قائلًا:

- هذا خداعكم أنفسكم وضلالكم الفكري، كذبتم وأصبحتم صادقين فجاءًة، أبحث ولا تنظر في أسفل الكوب ولا تبصر بمنظورهم أيها الرفيق.

***

في يوم ١٥مارس ٢٠١٨

أبصر فى الجريدة القومية صورتين الأولى لفتاة تبحث عن مفقوداتها بعد إطفاء حريق فى غرفة تأكلت وتفحمت والمياه منتشرة فى الأرجاء، والثانية جدار يعلق فى منتصفه برواز قرآني ملتف حوله مسبحة خشبية الصنع لونها قاتم والجدار اكتسب لون جديد وهو الأسود الشاحب ليشكل بلهبه دائرة حول المعلقات تلك التي لم يمسسها سوء،فإنها لوحة فنيه بريشة الحريق.

مانشيت في منتصف الصفحة

الجن يحرق منازل الغلابه

حريق هائل قاده عالم ما بين الثرى (العالم الخفى) في أحد منازل الفقراء بقرية **س** فى محافظة كفر الشيخ مما أدى إلى ترويع وذعر بين الأهالي المقيمين حدود المنزل ولم يسفر الحادث عن أية إصابات، تفحمت الأجواء وتطايرت الأرمدة من تلك الأدخنة فكسد الهواء منها حتى بات غيوم محيط بالأشلاء، وجدنا السيدة **م** عائلة الأسرة وبسؤالها ماذا تتذكرين عن الواقعة؟ أجابت إن الجن لايريدنا أن نسكن البيت وإن الحريق قد أكل كل شئ فالمنزل الذى صار رمادًا ونحن كما تروا نقيم الآن فى الشارع وبات مأوى لنا،

لن انتظر أن يحل الضرر بأحد أبنائى إثر حريق ينشب أخر وناشدت كبار المسئولين والمختصين بالحل لتلك الفاجعة.

وجدنا شيماء طفلة الأربعة عشر عامًا تجلس أمام المنزل في وضعية تربيع الأقدام وتكتف يداها رأسها تشكو حالها في خفوت بين راحتيها وبمحاورتها قالت أنا أبنت السيدة **م** توفى والدي وأمى ترعانا منذ رحل أبى ولا نملك منزل أخر نقيم فيه غير هذا، مع حلول الظلام ونحن نعد وليمة العشاء اشتمت حينها ريح حريق فإذ بالأدخنة تهاجمنى من كل الأركان وكانت ألسنة النيران قد بدأت في خطف ما تمسه في الغرفة، أصابنا الهلع من رؤية ذلك الحدث وهي تتوغل لا تهدأ حاولنا إخمادها وفشلنا وكان هو الهروب هو الأسلم حتى لا تأكلنا نحن أيضًا وبعد جاء رجال الإنقاذ واستطاعوا أن يُطفؤها، ومع هدوء الأجواء قليلًا دلفت إلى المنزل بصحبة أمى لأجد أن النيران لم تترك لنا شئ إلا مسبحة جدتى القديمة التى كانت معلقة حول برواز قرآني ونحن الآن نقيم أمام المنزل ونهاب المكوث به كسابق.

وبمحاورة أحد الجيران الحج أحمد **ح** قال بعد صلاة المغرب سمعنا نواح وعويل من الجار وزاعت الأدخنة بشكلٍ مخيف وخرجنا مهرولين من ديارنا لنبصر ذلك الحريق المروع وجاهدنا على إطفائه لكننا فشلنا حتى وصول رجال الإطفاء وهم من نجحوا في ذلك؟ وعندما سألناه هل تعتقد حقًا أن الجن هو السبب فى اشتعال ذلك الحريق؟ أجاب نحن نسكن هنا ونشأنا وترعرعنا في هذه القرية منذ الصغر ولم يحدث مثل ذلك أبدًا ولكن في الأونة الأخيرة سمعنا أن قريتنا أثرية من قِبل بعض الأناس الأغراب ولكننا لم نرى ذلك من قبل.

سألني سؤال محمل بمكعبات الثلج:

- هل أحد من أصحاب الأقاويل صرح بأية علامات فزع أو أي تفسيرات غير طبيعية حدثت في المنزل؟

أجبته بطلاقة حيث أننى متأكد من صحة مصدر الجريدة ومصادرها:

- لا.

وتوجهنا إلي وحدة الإطفاء الخاصة بالقرية لنجد أحد الرجال الذين ساهموا في إخماد الحريق وبسؤاله عما حدث؟ أجاب لقد جاءنا هاتف استنجاد في تمام الساعة السابعة مساءً فسارعنا إليهم حتى وجدنا منزل يتأكل واستطعنا والحمد لله السيطرة على الحريق ولم تحدث أي إصابات مطلقًا.

سألته وأنا مبهم الفكر والحدث وقلبى متمزق على تلك الأهالى المشردة:

- من الواضح أن الحريق سببه أحد رجالك أصحاب العمليات الأثرية الخاصة؟

مكملًا نظراتى له في انتظار إجابته وإذ به يجيبنى غير مباليًا:

- أولاً: اسم حارس الآثار يدعى (رصد).

- ثانيًا: لا يوجد فى هذا المنزل أى شيء يمت للآثار نهائيًا.

زادت علامات التعجب لدى وهالت الأفكار تهطل بتكوين أسئلة مجدية كي استفهم عن هذا الحدث.

وبسؤالنا السيد/ والى ع مدير معهد البحوث الكيميائية ما التفسير العلمى لهذه الواقعة أحقًا غزا البيت سرب من الجن ليحرقوه؟ بعد فاصل من الضحك أجاب لا أظن ذلك ولا أثر للصحة فالتفسير العلمى يقول عند الاشتعال لابد من وجود عامل مساعد أي مثلاً عند اشتعال ثقاب الكبريت لابد أن تحتك رأس العيدان المُكبرتة في المشطط الخاص لها فبات الشطط هو العامل المساعل للاشتعال، أما في تلك الواقعة المنزل يكسوه سقفًا مابين قشور بعض المحاصيل التي تجففت بعوامل الطبيعة بجانب بعض القش وكل ذلك معروف جدًا لدى المزارعين أنها أدوات الاشتعال، وجدنا أيضًا أثر لغاز الميثان منتشر جوا هذا تبعية افتتاح أحد المقابر الفرعونية وعند تفاعل الميثان مع ثاني أكسيد الكربون بالضغط يسبب اشتعال بخلاف حرارة الشمس اللإذعة والتبردة مع حلول كل غروب نشبت الحريق في تلك القش وأنجبت نيران، شكرًا لسيادتكم على هذا الإيضاح.

هاجمته السؤال وأنا فخور برأي العالم الجليل:

- إذًا لماذا يؤكد الجميع وجود آثار في الواقعة؟

أظنه قد اعتلاه اختناق من أسئلتي التي باتت غبية المذاع له فقد زفر رياح من فمه تبوح بالملل:

- حقًا غاز الميثان ينتشر فالأرجاء بسبب افتتاح أبواب المقابر وينتشر فالأجواء مائة متر تحديدًا لا أكثر من ذلك، فإن كان صدقًا ما قرأت أين الشرطة من ذلك؟ وكيف لم تعثر على المقبرة المفتحة وآثار التنقيب أرضًا؟.

ما زادتني إجابتك إلا حيرة وتشتت فقد صمت فمي ولُجّمت أسناني بسلاسل من حديد علي أثر ذلك فأنت توقعني في بحرٍ من الحيرة والاقتناع، زادني اللغز اشتياقًا.

بسؤالنا لفضيلة الشيخ العالم الجليل/ **محمود عبدالسلام** أحد قامات الإسلام في الوطن العربى .. هل الجن فضيلتكم وقبيله يستطيع أن يفعل ذلك فى منازلنا؟ وهل للأثار علاقة بذلك؟ بسم الله والصلاة والسلام على أشرف خلق الله سيدنا ونبينا الهادى المختار عليه أفضل الصلاة والتسليم وعلى آله ومن ولاه أما بعد الجن أقومًا يتعايشون بيننا فهم خلق الله عز وجل وقد دلنا القرآن الكريم على وجودهم وخلقهم ونسلهم وخلافه فهم يروننا من حيث لا نراهم لكنهم أضعف من ذلك بكثير إلا من رحم ربى وأتاه الإمكانية لذلك على أثر بسم الله السميع العليم من الشيطان الرجيم

قَالَ عِفْرِيت مِنْ الْجِنّ أَنَا آتِيك بِهِ قَبْل أَنْ تَقُوم مِنْ مَقَامك وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيّ أَمِين . صدق الله العظيم

، وهذا يدل على القوة التى تميز بها البعض منهم، لا أظن أن لهم تدخلاً بما حدث في هذا البيت و أسأل الله الهداية للجميع خلقه وعدم إتخاذ الدجل واللهو في هذا الشأن أما في سؤالكم بجزئية الآثار فلا علاقة للإسلام بذلك **فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون.**

توجهنا إلى أحد المشايخ المختصين في المجال الروحانى والمعروف عربيًا وإعلاميًا

الشيخ/ علاء محمد عبدالقادر وبالتحدث إليه .. سيادتكم تعلم مدى خطورة الموقف والجميع قد شاهد الحلقات العلاجية لبعض الحالات الإنسانية التى عجز العلم عنها وتم الشفاء والعلاج بفضلكم، فى هذه الواقعة التى أثارت الشكوك في نفوس الجميع نريد أن نعلم رأيكم فى ذلك؟

والله قد توجهت إليهم لأصلح هذا الأمر وقد تم بحمد الله فوجدت قبائل من الجن ثائرة غاضبة من أصحاب المنزل وذلك بسبب جهل الأم بتعذيب قطة وضربها وإلقائها بماءٍ ساخن وكانت هذه القطة متلبسة بأحد قادات الجن وأصابه الحريق فثارت قبائله وأرادوا الانتقام لما بدر واستطعت بعد عناء أن أتم المعاهدات والمصالحات لتعود الأوضاع كسابق عهدها.

ابتسمت وأنا اختتم قراءة هذا الموضوع فرحًا بانتهاء أزمة تلك الأهالى وحينها صدمتنى نظراته المحملة بالاستهزاء والسخرية ليصدمنى بسؤاله العجيب:

- أحقًا .. أقتنعت بهذا الهزوا!

صابنى السؤال بأسهم نارية أدت إلى تلف جزئي فى اللسان فلم أنطق كأن على رأسى الطير.

انتفض هو من مكانه ليقف أمامى وريحه تشابك أيدى سوداء مترابطة خلف ظهره ليتماشى قليلاً أمامًا ومن ثم يعود خلفًا فإنه يعد سؤال أو إجابة ليقول:

- أنتم عثاه اعتلاكم السفه، من ضيق حيز الأرض ترك أحد أبنائى الكرة الأرضية وتلبس بالقطة ولسوء حظه هذا اليوم غمرته السيدة بالمياه الساخنة بعد أن انهارت عليه بالضرب، كان سيء الحظ فعلاً.

- ألا تعقلون ما تبصرون وتسمعون، تركب حدثٍ حدث والكل استفاد من ذلك.

صمت برهة من الزمن ليزفر بصوتٍ غاضب ليكمل:

- هذا ما تسمونه أنتم بالتشهير الإعلامى لصالح كل من شارك في الخبر مع بعض الحبكات الدرامية المختلقة من قبل الكاذبين، نحن نشعل النيران حقًا لكن بدون وليد حريق حيث تراها ولا يتسبب ضرر بالشىء المشتعل، فزعٍ فقط ولا تستطيع إخماد نيراننا مهما فعلت نحن نشعلها ونحن نخمدها لا مساس لكم فيها.

قاطعته بتطفلى وتلهفى للإجابة:

- من الحادث للواقعة فأين الغفادة من ذلك؟

لاحقنى هو بما لم أتوقعه ولم يخطر على عقلى هاتفًا به:

- عند وفاة **راع** الأسرة أراد أخيه شراء المنزل ولكن الزوجة باءت بالرفض التام فأزاع السيط بنبش المقابر الفرعونية أسفل المنازل حتى انشغل الجميع فى أعمال الدجل والتشعوذ والحفر، فى اللحظة القاتلة الحاسمة حيث لا ضجيج ولا صريخ لوليد نفث نيرانه فى أسقف المنزل وله ما أراد.

بعد استماعى للفكر الأباليسى لهذا العم ولخُطّته سألت بتعند وإصرار وكأننى على عدم اقتناع مشككًا في إجابته:

- أين باءت مصلحة العم بعد التصالح الذى قام به الشيخ علاء فستعود الأسرة أدراجها؟

ابتسم غير مكترث لسؤالى فجاوبنى بهمس ريح يكاد يسمع:

- أنتَ شابهم حقًا، ما فعله سيؤدى إلا تنازلات من قبل الأم كثرى ومنها أيضًا خفض سعر المنزل وإتمام عملية البيع والشراء فى أسرع وقت وفي تلك اللحظات سيكون تغلب الوهن و الرعب والخوف بجسد الأم وأعلم جيدًا أن المرء لا ينسى ما أصابه من ضررٍ إطلاقًا وحتى إن تجمدت المرأة وتصلبت عن البيع سيعاود الرجل بمخططًا جديدًا أكثر حنكه مما سبق، الأيدى القاصدة فائزة والواقع المرير هى الشهرة التى نالها المنزل ولقب بمنزل الأشباح والعفاريت.

اختتم كلماته مهرولاً على غير عادته مخترقًا الحائط لألمح ريحه وكأن هناك غضب ما قد أصابه فهجر.

***

نظرة في طيّات المجهول

فوليد الموت واقع جديد

***

فيما بعد رحيل نبى الله موسى(كليم الله)

سجى الليل وأضحت الأرض هامدةً وتوالت الندى قطرًا لتبصر زروعٍ خضر لا حصر لها وكأنها جنة أرض محاطة أطرافها بورودٍ يراقصها الهواء و تنادى لها الضياء فتتمايل يمينًا ويسارًا على غناء الحشائش الورعة المتباهية بنشاطها وزقزقة عصافيرها التى تمهد قدوم كروان سيصدو الأرض بدعائه الملك لك فيخر الجمع تجليلاً لشروق الأرض.

يتوسط هذه الخضرة منزل طينى محاط بأخشاب الأشجار ليشبه كوخًا فقيرًا تحاوطه بعض الشجيرات التى تحميه من غدر الرياح ولعله يتظلل بها، هناك ديكٌ يصيح وينادى ليريك الحظيرة الصغيرة الساكنة جوار ذلك الكوخ وبالجوار مخبز يدوى الصنع أمامه ملقى بعض الأحجار التى تتخبط لتصدر شرارًا وقشور المحاصيل الجافة متناثرةً بين هنا وهناك والكل فى انتظار الصانع.

صرير بابٍ يغزو المسامع فإنه يفتح الآن لتخرج منه يافعه معمصة الأعين ذات رداءٍ كتانى وهى تفترك عيناها، ماشقة القوام،

تحنو الأرض تحت أقدامها وهي تقبل إياها فتلين وتتشكل بخطوات أناملها الناعمة، تزيح يداها لتبدر ضياء وجه تلامعه الشمس نورًا وعينين طفقت لهما زرقة البحر تضرعًا وغرورًا يتوسط وجها أنف مسمارى أملس يداعب وجنتان من وردٍ عالقتان فى فمٍ عنبى تملئه الدنيا سرورًا، يهب نسيم الرياح ليطاير خصيلات حريرها قاتم السواد المنسدلة على الأكتاف مما جعل المقاومة ضعيفة من قبل الشعيرات فما لها إلا الاستسلام لكن الرياح تأبى ما يحدث لتدخل فإنها المحببة الخاصة لها فإنه حكم الغيرة، تستجدى الحشائش بالصراخ لتنبه العصافير لتشكل أسرابها فرحًا وتغريدًا لرؤيتها.

تخطو وليدة الخضرة بخطوات لتتخلل تلك الزروع وكأنها تبادلهم تحية الصباح، يتزايد جمالها رونقًا مع تلك الخطوات وهي تترنح يمينًا ويسارًا لتلامس الورود زاهية الأوراق فواحة العطر حتى تصفو من روحها حتى إنك تتمنى لو كنت وردةً فى بستانها كى تلامسك يداها الناعمة لتهدأ أنفاسك اللاهثة لتلك الجمال.

تزايد من خطواتها تنادي الطبيعة بنداءٍ خفى لا يعلمه سواهم حتى تسابقها أقدامها جريًا فتزفر وتشهق وتنتفض أوردتها معبئة بالهواء الجديد، فجاءةً ينقبض قلبها على غير العادة، اقشعر بدنها ورفضت أقدامها التحرك والتصقت أرضًا فإنه ألمٌ غزا الجسد فلأول مرةً يصيبها هذا الإحساس، إن القدر عامدًا تغير صفو النقاء.

صرخة نسائية تأتي من بعيد، اخترقها الهلع فإنه نداء يأن له دبيب النمل ليعجز الجمع عن الحركة، لا تدرى من أي نبعٍ آت:

- هيردميس

ارتعدت أوصالها إنه اسمها، تحاول مقاومة تصلب جسدها فالدماء تفور في عروقها والفكر يتخذ مداركه لإلزام الانتفاض ومنه تتخبط الأقدام وتترجل فهذا سباق الزمن فأمها تستنجد بها، هذا ما أيقينته من تكرار الصرخات وعلوها حلول كارثة، الأم تصرخ ولابد من إجابة، تتسابق الأقدام أرضًا تكاد لا تلمسها من طيرانها وتحليقها وإذ بها تطيح بباب الكوخ ليصطدم متصدعًا دون استئذان فلا وقت لذلك، تبصر في الحين أنثى تآكلت من رعديد الصوت.

***

ليلٌ طامس وقمرٌ غاطس وسحبً ممطره وزعابيب غاضبةً ثائرة وأمواج متصارعة متلاطمة في بحر هائج لا ينذر بالخير يا له من طقس هالك منه تسمع أصوات مستنجدة، تجاهد الرؤية لترمق سفينة تصارع الأمواج فالبحر يناديها فاتحًا ذراعيه، الفك منتظر المرور والجوف متأهب الهضم والابتلاع وسرب قادم يصدر غواء الموت ليزيد من البلاء مجره وكأنه هو الموعد الحاسم للقضاء على السفينة.

ينادى القبطان صارخًا متوسلاً:

- ارفعوا الأشرعة

يستجيب البحارة للنداء بعد مقاتلة وعناء فارط، إن السفينة تتراقص على طبول الموت، يكمل باضطراب وهو خافت الصوت وقلقه نهش الوجدان وتوغل فإمتلك الجسد:

- يإلهي أنا لم أرى ذلك الطقس منذ أن أبحرت.

***

سفح جبال الكاوا

يخفو ويعلو صوت متمتم بكلمات مجهولة مبهمة، يقترب الهواء بخطواته الواسعة يريد الوصول له لكن الليل يعترض فتتلاشى الرؤية قليلاً حتى تدلف كهفًا فى أحد الجبال الساحلية يصدو الصوت منه مترددًا في هيكل البنيان، يقترب الصوت مصاحب الهواء لكن الثاني يأبى الدخول من بوابة المغارة الحجرية فهو غير مؤذن له بذلك، تتناقض الأصوات بين ضحكاتٍ صاخبة وصرخاتٍ غاضبة ليرجح وجود شخصان مختلفان الآراء بالداخل، هناك إضاءة خافتة نابعة من مشعل أرضى من مجموعة أخشاب تأكلها النيران، جدران مخطوطة باللون الأحمر الداكن لتشبه الدماء يبدو عليها طلاسم ودوائر وتربيعات متداخلة بأحرف وأشكال تشابه الأوجه الدامية وحيوانات مقطوعة الرؤوس، رائحة مقززة تخترق النيران فتنهشها النيران باشمئزاز فتلعن رمادها فتزفر الأدخنة نبضاتها، هناك أشعث يخطط الأرض بعظامٍ حيوانية ليرسم كلماته.

***

يعلو صوت بكاء الأطفال وصرخات النساء تناجى إلهها والكل يتمنى الهرب والاختباء لكن لا وجود من هذا السبيل، يحاوم السرب مقصده يلتف دائريًا ماذا يفعل؟، إنه ينذر أو يستعد الغزو، أوشك على التلاحم والاشتباك مع الخصم ليسرع التفث من الأشرعة مازقًا إياها ليتخلى عن كينونته مخترق ساهمًا ليس مصادفًا، هل لعنت السفينة من قبل الآلهة لتسلط عليها غرابيب؟.

تتمايل السفينة ويختل توازنها، يهاجم السرب بأجنحته البتارة كل ما يقف أمامه غير مفرق بين رجل وامرأة وأخشاب وحيوانات لا يبالى، تغمر المياه السفينة ليمتلئ جوفها فلا ملجأ للبحارة من المواجهة إلا القفز في الماء الكاحلة ليلقى كلاً مصيره، هناك من لا يمتلك الثبات والمقاومة وقد استسلم لموته وهناك من يجاهد في العوم، يا لها من معركة ليست متكافئة فهى محسومة منذ البداية لطرف واحد مسلح ومجهز بجيش قوي عتيد، إنه جراد الموت الزاحف الذى لا يرحم عُزّل.

أعد الموت حقائبه، وبدأت السفينة الإخفاق والأمواج مازالت تتجبر لتصدم أجزاء السفينة المجاهدة الثابرة فكانت الأشرعة أول الضحايا ومن الأعمدة القائمة علي التوازن فسقط منها ما سقط سطحًا وماءًا ولم تستكف بذلك، هال الجزء الخلفى للسفينة بالانحدار ومنه بدأت مقدمة السفينة بالتحرك ككهلٍ يقف من بعد السقوط.

أتمت الغراب مهمتها بنجاحٍ منقطع النظير فراحلت أدراجها، الأمواج لا تمل علي مواظبة ما نوت تخترق ما تبقى تهجم بلا رحمة بكل ما أوتيت من غضب حتى وصلت قمة القائم المرتفع وهمت بالدعس فوق رأسه كى تدفنه كغراب قابيل، وهمَّ البحر بترحابه بطعمٍ جديد سيتناوله.

يأس الجميع من المقاومة فرحلوا عن الحياة لتطبق قاعدة الاستغناء .. ليس كل ما تستغنى عنه خسارة، بعض الأمور الاستغناء عنها أفضل، أما أن تكون حياة سعيدة وإلا نهاية هادئة، تطفو بعض الأشلاء علي سطح المياه التى تراقصها بطبول الأمواج التى تفوقت علي ذاتها وإرتدت قناع آلهة الموت،ومر العمر بما يحمله من ألم وهذأت الأجواء ورفعت راية الصمت.

***

يُقدم هذا الأشعث المتكهن موكب خطواته البطيئة متعكزًا بعصاه التى هزمته طولاً متشكله بأفعى خشبية وعيونها ذات الحجر فيروزى، يلتف حزام كتانى حول خصره ملتصق به قارورتين صغيرتين ممتلئتين بزيت داكن اللون، ويجر جسده القصير ملابسه الخشبية السوداء ذات الهرتلة والعفونة، تنغرز خطواته داخل الرمال متوجهًا إلى الشاطىء، يغلبه ثقل وزنه أحيانًا بين خطوة وأخرى هنا يعافر وهناك يتخطى حتى يبلغ مقصدة فقد عزم النية لذلك.

وقف على الرمال وأخرج من سرواله ما أشبه بعصا صغيرة حمراء اللون لامعة و همَّ بالتخطيط أرضًا، ألتف حول نفسه ليفحر دائرة كبيرة ويتوسطها نجمة داوود مكتوب داخلها بعض الأحرف المتشابكه ولم يستغرق رسم التعويذة بضع من الوقت، أمسك بإحدى القارورتين وبدأ في سكبها لكى تسرى كالثعبان فى نقشه في مشهدٍ مخيف ومن هنا فرغت بما تحمله من زيت أخضر كاتم لتلقى مصرعها ملقاة على الرمال بعيدًا فقد أدت دورها بنجاح، ومن ثم جاء دور القارورة الأخرى لتسري مسرى

أختها فى نجوم داوود لتضىء النجوم باللون الأحمر المنير وفي النهاية تلقى ما واجهته حميمتها، مكث بجسده أرضًا ليعلو النجمة الحمراء وملوح أمامه بعصاه اليمنى أمام بصره فإنه يشير لأحد لا يراه غيره ويده الأخرى مرفوعة عاليًا وبذلك يتم طقوس تحضيره المجهول، ومنها نادى بأعلا يملكه هو محدقًا أمامه في اللاشىء:

- أجيبونى يا ملوك السبع، أنا الطائع ممخاروا

وإذ به يتمتم ببعض الكلمات المطمسة أظنها نهاية تعويذة، فجاءَة يصرخ بالفضاء ولا يرتد له جفن:

- واحة ساحة عجل

تفور الماء الراكدة فإنها تلبى النداء ويتزايد النبض كبركانٍ يتوهج، ويعلو كرير المياه بين هنا تتدفق وهناك ترتفع لتتعارك مع الهواء، وإذ بدوامةٍ تفتح ينبوع ثائر يتشكل بهوج الماء ليبرز النحات تفننه وإبداعه فتعلو وتعلو أكثر وأكثر ليتثبت منسوبها ومنها تسقط قطراتٍ كقشورٍ زائدة لا مكان لها في تلك التمثال، بدأ الفنان يزيح الستار عن قطعته المميزة، ملامح أنثى كاملة البنيان من قمة رأسها حتى منابع ثديها، تهز رأسها بطأ لتتطاير عن وجهها قطراتٍ مزعجة ومنها يظهر خصيلات شعرها المتوارية، ما إن عبرت عن الأنوثة المكنونة فى الملكية والتحكم حتى لاحقها هذا الأغبر ساجدًا على ركبتيه جاهرًا بصوته:

- ملكتى جميلة نساء البحار أزعت الطقوس لاجلالك ورؤيتك هو غايتى، أردت نساء من جوارك لأنشر مرجلى بفناءك، مثلى لا حيلة له من دونك ويتمن رضاك.

استمتعت تلك المائية وكأنها مستمتعة بكلماته التبجيلية لها فاشهرت بفتح فاهها لترتسم البسمة الراضية التى تعلن التلبية لذلك الأغبر المكتحل ولم تجيبة إلا بانصرافها من موقعها ليبصر ظهر منبَّع من دوامة غائرة، أتخذت الماء الهبوط نهجًا لها حتى هال الجسد يمحى بأيدي النحات ذاته ليقضى على سيدته الجميلة، لحظات وتلاشت الرؤية وعاودت القطرات ركودها، استقم هذا المشعوذ من سجوده عند رحيلها عنه لينهي طقوسه الواهمة فى انتظار نبوءة دعوته.

***

ينذرف قطار الدموع طريقه عند رؤية الأم لوليدتها وهى تنحب فزعًا متخضبة اللون باكية بصوت متهدج قائلة:

- لقد فارقنا أباك

تخترق الكلمات المسامع وهي تحدق لجثمان الزارع الملقى أرضًا لتخضب الدماء وجهها بعد مفزع قلبها الذي إنهارت جدرانه، الأنفاس تتسارع والشهقات تزفر بريحها والعقل يحاول الإنكار لما ترى العين والعقل يجيب لقد رأت الواقع الأليم لا أستطيع إنكار ذلك اليقين ومنها أعلن الفم الصرخة الأولى متأوهًا من قلب الأنين، الدموع تنهمر بغزارة فاليتم أصبح واجب مات السد المانع رحل المأوى وزال الدافع، هو مصير الفراق لا مفر منه.

خرت قواها قهرًا لتجثو حاضنَة جسمانه مودعًة إياه فهو اللقاء الأخير والحضن الأخير أنه يوم الرحيل، تقبل جبين الميت مودعًة إياه وهي تزفر:

- أبى أرجوك لا ترحل عنى

لا مجيب، تمسك تلابيب ملابسه محاولًة هزه لعله ينطق ولا سبيل في ذلك، تلمس الأم أكتاف صغيرتها لعلها تحمل عنها آلامها وصدمتها وتحنو على رأسها لعل فى ذلك رجاء، حتى حنان الأم الآن لا يجدى وإن جاء من نبع يدها، فالألم أقوى من موج الحنان، لا تعويض لراحل.

***

عمت شمس الصباح الأرض وقد قذف البحر ما فيه من غبار الأمس ليتناسى ما حل فيه كالمخمور إذ حل سُكره، لا يتذكر شيء.

دلفت الرمال الملتهبة بعض أشلاء السفينة الغارقة و أصطحبت معها أجساد نساء ملقيه بل منكبه على وجهها فهم أبدان شبه عراة، هن من تبقى من ليلةٍ غاطسة، هن من نجا من حلبة الموت المتجبرة.

لا حركة حتى الأن والشمس تزيد لهيبها والبحار تلاطم موجها والرمال تولع لسعها العقارب والطيور منادية السماء وهالت الأجساد تقلبها.

لوَّحت المستلقية الأولى يدها بردائها الحريرى المكسو بالورود الذى دلّ على كونها من علية القوم والثراء.

تتأوه محاولة رفع أذرعها تحاول الإتكاء والاعتدال حتى تقوى على الانتفاض من مضجعها، تجلس ممسكة رأسها مناهدة لاهثة أنفاسها المتسعله فإن مياه البحر حقنت جوفها فبدأت نوبات

القيء تتخذ طريقها وهي تجاهد الظمأ، تحاول استرجاع الحدث لكن ألم الجسد يعارض ذلك فإن العظام تنخلع وجعًا، فزعت من صوت يتألم بجانبها وإذ بها ترمق أحد ممن كانوا يعتلون السفينة بصحبتها، أنثى تبدو عليها ملامح الملكية أو الإمارة مرتدية قطعة من الحرير السماوي يظهر بواطن جسد شمعى نحت بأيدى محترف، تبادلا الأنظار ليتقاربا رويدًا رويدًا حتى يتشابكا الأيادى بلهفة أم ضل عنها رضيعها وعادته، الوحدة مفزعة إن كانت فى مثل ذلك الوادى.

يتلاهثان أنفاسهما ، يحاولان إلمام شتات أمورهم، يأملون التدبر والوعى لذلك المجهول الذي صار مصيرهما الأبدى إلى ما شاءت الأقدار، إجتمعًا على الأوجاع والصرخات، بدأت الصورة توضح شيئًا فشيئًا، ما لحق بهم من ضرر أمس وغرق السفينة عند رؤية الأشلاء المنتشرة في الساحل، أتخذا خطواتهما بحثًا عن شريك آخر بحثًا عن الأسرة والكيان الضائعين، بحثًا عمن نجا من ملحمة السفينة الغارقة وإذ بهما يبصرا إناس ملقين بعيدًا، تسارعا وسارعا في لهفة عارمة حتى وصلا إلى جسمانين لسيدتين، فكانت الأولى ترتدي رداًء أسود فغزا بأيديهما مهازاة جسدها حتى أفاقت واعتدلت مثلهم ولحظات أخرى مضت ليهرولا إلى الأخيرة الباسطة لذراعيها فى نومٍ غاطس، لا تستجيب، لا تهتز، لا تتنفس فقد برءت روحها مُسلمةً للموت.

من وراء كوخه الصخرى الذى يعلو السفح، موقعه المميز الكاشف للشاطئ أجمع بذرات رماله وهو بيته أيضًا فلن يختار أنسب من ذلك منزل، سمع صراخ وتأوه وهذا ما أخرجه من

مسكنه ليبصر ما يدور، بدأ الاستمتاع يغزو عينيه فلم يبصر أُناسًا منذ زمن بعيد، منذ أن تم طرده من المدينة لم تسمع أذنيه غير صوت الغراب والرياح والعواء قد حنّ لحديث البشر حتى أنه شعر بأنه لا ينتمى لبشرٍ قط، غمرته السعادة أخيرًا فهو أسعد يومٍ مَرّ عليه منذ مولده، استجابت تعويذاته ونداءاته ورضت عنه الأقدار لتُلقى له بالنساء من البحار.

بعد أن نزفهما الإرهاق والعناء فى بحثهما الكثيف عن حالة نجاة أخرى مكثا محاولين تدارك ما عليهم القيام به، أمر واقع مفرض والأسئلة تهلك أذهانهما فكرا، كيف سيعيشون ويتعايشون في ذلك السفح؟ أين سيقيمون؟ هذا اللامأوى، اللامشرب، اللاحياة، هذا الفزع ذاته، كيف ينسون حياة البزخ والترف والمدينة؟ أين الأزواج والأبناء؟ أين الحفلات والنزوات؟ وادٍ بلا إجابة ومن موت لموت.

بعد أن قضى ساعات الاستمتاع والتأمل لهؤلاء التيهة أدرك أخيرًا أنه وقت الإلتئام، إتخذ طريقهم مسلكًا ليلقى الصياد مربطه للإمساك بالفريسة، تلازمه قواريه في كل مكان كان وخطواته متلهفة مسرعة الإتجاه أظنه عاد شبابًا مرةً أخرى، الأعين لا تصدق ما ترى باء المستحيل أمانًا.

ضربت الحرارة الأعناق عطشًا وغلب الجوع البطون عوجًا فأذهت العقول فى الهوا حتى إتخذ الجمع مناجاة الإله سبيلا لكن المعجزات مستحيلة فلا وجود لديهم لنبيًا أو رسولاً، هالت العيون الخمول والأجساد قد هرمت والإستسلام هو المصير المقدور، ترمق الأجفان النفس الأخير وربما يبدو طيف إله الموت قادم فهى هواجس النهاية أم هذا مبعوث رسول؟.

***

غلفت الأحزان جدران المنزل فقد رحل من شيده وبناه ورسمه أعدّاه، علم الجميع نبأ الوفاة ليقومان بإعداد مناسك الموتى وأعد أحدهم بتحنيط الجسد الذى فرغت منه الأمعاء والأشلاء لتوضع فى كوانيب الحساب الأربع فهى مرافقة الكتان إلى البعث الجديد، تودع النظرات بالسلام الأخير وتلقي الصغار بالزعانف والزعفران فهو فقيرٌ لا يملك إلا الجدران وقد تركها ورحل عنها بلا ذهب بلا تيجان إلا هداه فقيرًا له بجعران وبعض الأوشيبت البورسلان وفى جبانة الفقراء المرقد الأخير للجسمان(الجبانة هي مقابر حجرية منحوتة في الصخور والجبال يوضع فيها المكفن وتغلق عليه الأحجار وهى تعد ميتة الغفران)، لا حاجة للملوك لفقراء مثله في نهج البعث والحياة الجديد لذلك دفن فى تلك المقابر الجماعية المبهمة.

شُدَّ الغطاء الحجرى لينغلق تابوت الوحدة ويترك الأهل والأحبة فلا صديق ينادى ولا رفيق يشده، الظلام هو الصديق الوحيد الحالك الذى لا يزول إلا بأمر ربه.

***

تُلامس أنامله الوديان فى شهوةٍ مدفونه داخله والعين تقبل التضاريس والمنحنيات المكنونة والقلب يخافت بضرباته والفكر ثار مجذوبًا أيتناول الآن أم ينتظر المضمون فلا مذاق الآن إلا بإفاق الملقون ولا متاع بالاستسلام فالملقى بات مضونًا.

حمل بيده رأس الملقية أمامه ليلامس خصيلات شعرها المترملة ويده الثانية تمسك بالقارورة، فاتحًا إياها يعمل على سكب قطرات المياه في فمها والفم رافض مزمجر والمياه تسعى حتى لو روت الأسنان اللامعة لتغمر الريق بسلام كشلالٍ منهمر فى أرضٍ بور، شهقت بين يديه شهقتها الأولى وهى ترتشف بعض الرشفات عطشًا ويتساقط من فمها ما يتساقط ونظراته مازالت شارهة يتمنى فى هذه اللحظة أن يصير هو تلك القطرات حتى يلمس كافة جسدها، تتردد جفنيها لتومضه وهى تنتفض بجسدها رعشًا حين أبصرته، يدها أرادت الحياة وعصت كل أوامر الخوف من غريب مثله فالظمأ أقوى من أي شىء حتى لو كانت المياه في فم الكلب وقد خطفت من يده ماء الحياة حتر روت جوفها البور، أعطته إياها فى عجبٍ وتأمل فقد تبدلت الأحوال من بعدٍ خوف بأمان.

أدرك من فعلتها فكرها وكون تحليله عن شخصية الرادفة أمامه، وقفت أمامه كفرس نهرٍ متمرد مدربه وهو يتأمل جوع المرأة الساكن لديه في صمت الآن، أخذت نظراته خيط سيرها من منبت شعرها الأسود المنسدل وهى تفركه بيدها لتناثر عنه الرمال بعيدًا حتى المرور بجسدها الخمرى المكتسي برداء أسود عارى متكشف حتى وصل لمخمص قدمها ومن ثم عاود نظرة تأمل العيون الواسعة بنية اللون والأنف المسمارى قصير منبط وفمٍ مرتفعة الشفاة ممشط وهى تثور بكلماتٍ عشرينية الصوت:

- ألم تكتف بعد.

تعجبت عيناه من جرأة الغجرية المتجمدة وهى تزد من إعجابه لتبتسم شفاهه مقتنعة بما سمعت، لكن لا وقت لديه للمهاترات ليهرب من حديثها ليجثو بجانب الأخرى ليفعل ما سبق فعله .

انتفض الجسد بعد اندلاع الماء لترمق ذلك المتكهن أمام عينها لتزح يده بقارورته عن فمها أنه رعب إنها استكفت بذلك، تبعد زحفًا كسلحفاة تنكمش ومنها نهضت رامقةً تلك الغجرية خلفها، أومأت الأولى بهز رأسها حتى تنبع سيل الاطمئنان والثقة فى جوف رفيقتها.

امرأة فى عقدها الرابع غزى ملامح وجهها الكبر والحكمة ذات شعر أسود مموج طائل ثدياها بلا تأدب كما أنها تمتلك عينان غلبهم كتم السواد وأنف مفرطح مستطل وفمٍ متسع خمل وجسدٍ طولى أبيض منحمر كساه الحرير الوردي المتلاصق المنقطع والمكلف بتجميل الترهلات المنحنية، يحاول على تهدئة روعها بكلماتٍ زائفة الواقع:

- لا تخافى و أشربى

بعد مسامعها بادلت النظرات بين الغجرية والقارورة حتى أومئت بالثقة بعد تدبر والتقطت يداها بحياءٍ تلك المياه حتى أشبعت عطشها، شاكرةً الملامح إياة وهى قائلة:

- أين نحن؟ ومن أنت؟

يجاوب أسئلتها ببسمةٍ غامضة محيرة فتعطيه قارورة الحياة لكنه يتجاهلها ويلتف عنها بجسده ليلاحق ذات الرداء السماوى ليكمل ما جاء من أجله.

تستفيق هى الأخرى لاهثة أنفاسها نافرةً ببعض المياه لكن الظمأ لا يرحم فتمسك متخطفة القارورة ككلب أعطش، تلهث بعنفوانية زائدة دون مبالاة لمن يعطى؟ أو لماذا يعطي؟ فهى الآن أمتلكت مياه المحياة، طفح جوفها ملئًا بل كادت تتكرع حتى تشاجرت مع أنفاسها وجاءت لحظة الإبصار وأبصرت لكنها لم تدر حدثًا وكأنه شئٌ معتاد لديها.

تفحص بعينيه الكاهنتين جلوسها بطريقته فلم يشبع رغبته سابقيها ليتأمل تكوينها من أظافر أقدامها مارًا بقوامها اليافع المتوهج احمرارًا فى عقده الثالث مُنحت بتضاريس حلزونية كشف عنها ردائها المهترئ وغمضت رؤيته السيول الذهبية المتطايرة الناعمه وهى تداعبها لتقرها خلف أذنيها بيداها الملثة لتظهر مفاتن ملامح وجهها المتشكلة في عينان غلبتهم خضرة الشجيرات وأنف مدبب أنحف متصل بفم فاكهى قرمزى متصل بوجنتين واردتان التفتح معصم بداخله صفوفٍ متراصة لؤلؤية النصاع فلا خطوط شقاء تغمرها ولا عناء فهي من المغسَّلين باللبن والعسل فما سبق من حدث لم يزيدها إلا جمالاً وبستانا، ناظرته هى الأخرى بما يكفى فلم تشمئز منه بل عسَّلته بقطرةٍ من كلماتها:

- شكرًا للألهة أن أرسلوك إلينا.

تبسم ضاحكًا من قولها متمنيًا لعقها بعد سماع رنين كلماتها المعسول لكنه صياد واعر يدرى متى يلم بصيادته، لم يجب لتزداد الحيرة في أعينهم ويتمجلس الثلاثى متشابكين الأيدى ناظرين له كمعلم يدس تعاليمه ويلقن طلابه، هناك أسئلة شغلت الأذهان وهو بفطنه يعلم ما يدور جيدًا ولكنه ينكر وينتظر سماعهم.

يشير ببصره ويده لعصاته الملقاة بعيدًا عن متناوله قائلاً بصوتٍ أمر تعب منتظر إجابةً ما بنفسه الخبيثة:

- أتونى بهذه.

***

بعد تكسير الأوانى الفخارية واعتلاء الزى الأبيض وامساك الجمع بالورود والزعانف انتهى طقس الدفن لكن الحزن سكن القلب.

تُخبر الأم تعاليم ووصايا الراحل لابنته فالبنت مازالت تائهة في دوامة الصدمة والحسرة على فراق الأحبة لا تعلم مصيرها المجهول ولا تدرى ما تخبىء لها الأيام والمقادير، أعدت مسامعها والوجدان يتمزق لتلبية إرادة أمها وفكرها يحاورها هذا ليس بالوقت الملائم والأم مصممة توصيل رسالتها في محاولة للصمود قائلة:

- بنيتي لقد أتم أبيكى رسالته وجاء دور الطاعة والسمع.

والابنة منصتة مستمعة للأم كى تفرغ ما بجعبتها

- لقد كان أبيك رجل صالح متعبد، رحل بحقيبة أسرار ولابد أن تدركيها فهذه كانت وصاياه، فى البداية هوى العلم فتلقى العلوم فى أحد المعابد حتى تكهن ونال ما حلم وأراد لكن طموحه هزمه ليلامس علمًا شائكًا، وهو علمٌ فريد بذاته لا يسلكه إلا القلائل ويقال عنهم المختارين، العلم هذا لا يلقنه بشرى ولا يمسه بشىء بل يلقن من قبل الجان فخاض فيه أبيك وأغوته ابواب المعرفة حتى قذف إليه كتاب لا أعلم ما يحمل ولكنه أبلغنى بأن الخطر سينال الجميع، فعصا من كان يلقنه إياه وبدأت الحرب

التي كان يخشاها، ثار الإناس ضده و أرادوا الزج به حتى الأرض صرخة بأنه عاصٍ لعين في عيون الجميع حتى قرر الهروب والعصيان من عشيرته، طرد ذاته من جوفهم فخرج حيث المتاهة لا يدرى وجهته وكيف ينسى ما تعلمه؟ ولازمه طيلة حياته وتزوجنا وأتينا زارعين حاصدين تلك الأرض وأتخذناها بستانًا ولكن كان هناك ما يزعجه دومًا ويحاربه حتى فى مناماته تصارعه وتفزعه وتهدده، بات منامه جحيمًا حتى كره نومه وظل يجاهد ذاته حتى تتلاشى تلك السدود ولم يستطع، وقام بدفن الكتيب في الأرض حتى لا يمسه إنسان فيلقى ذات مصيره بسببه ويحتمل الحسبان وهكذا زهد الدنيا بأكملها إلا حبيبته ومدللته أنتى حتى أنتهت آلامه ووافته المنية وكتب الأجل نهاية سطره.

استمعت لما روت أمها وتزايدت أعبائها وآلامها حزنًا فكيف لم تشعر بالأب الذى ظل عمره معبء بالجروح؟، حفرت الدموع مسلكها جبرًا وصار نحيبها عويل فقد ظلم أبيها وقهر من أجل أوراق لا قيمة لها، لقد كان العلم جائرًا وظلمًا وبهتانًا.

***

ترتعش الأنامل ويرتعد الجثمان وتجلطت من حوله الدماء وتسلطت الروائح الكريهة فغلبت العفونة الأكسجين ليبصر حاله المتوجعة وترمق من بعدها عيناه العظام المحيطة به والأجساد المتأكلة المتحللة والدود المنتشر مواظبًا عمله وشباك العناكب المتخبطة والحشرات تزحف بوأدة كما يحلو لها.

تسللت أشعة الصباح بين الفروع المتشابكة لتنير بئر السحق،

تعمد شعاع على جسده ليستشط جلده حرقًا وتلاسع قلبه فزعًا ليصدر منه دخان معلوم المصدر، نهض بجسده المهان من جوف الموتى وتحللهم يلاحقه بالقيء فترة والأنفاس تعانى فإن الرائحة كريهة.

رفعت يداه تتحسس الجدران الحجرية حتى وجد تجويفًا مخترق، أمسك به فى أمل فهو النجاة و الأمان، شد وتد عروقه لتبرز سواعده معلنًا النهوض وهناك عيناه تستكشف المواضع التى من الممكن المساعدة في الهروب من جحيم الشيطان ذاك، يده تُأكد البيان فيباغت قدمه صاعدًا مخترقًا الجدران فمناله بات أمامه وسيصل الآن.

مكث فى موضعه السابق ليعيد طقوسه الخاصه فهو مصمم الوصول لغايته رافضًا الاستسلام وأمامه نقوشٍ مخطوطة بسوادٍ قاتم وكأن خطه الظلام بقلمه، تعويذة هذه أم ما ذلك؟ لا أظنه يمت لأي من الأديان!

***

(٤)

قانون الذات المُسيطرعلى الأكوان

سأضع الشر والمفاسد أمام عينيك

تقف الآمال والطموح وراء حائط صلب أسمنتى يُفتت بالرغبة الموحشة فى الوصول ، حتى تُلزمك الإفرط فى بحر ملذات الدنيا وتتخلى عن قواعدك المتبعة

بإرادتك وستتقن شهوتك الخوض والتسلل، وعلى النهاية المعقدة تدمن عشق الدنيا وفى مخيلتك أنها أتتك راكعة خاضعة ولكن هيهات أنت من جئتها زاحفًا متوهمًا.

فلتسأل نفسك عن الأسباب إن استطعت!

انتظر رجاءً خاصًا أن تمسك قلمك الخاص وإن تضع تحت كلمة (نفسك) خطوط حمراء ولا تقلل من ذلك.

لكن غاصت قدماك الوحل فلا سبيل وإن تغلبت وأستطعتُ العودة حتمًا خسرت ما لم تريد أو تتوقع خسارته يومًا.

اعتقدتم أن الكون مسير تحت إمارتكم وأن الطبيعة مذللة لأمركم، استغللتم الزروع والماء والهواء والفكر .. وألخ من ذلك بعبث أيديكم، بمنظوركم هذا هو فعل الخيرات والتقدم وما آل من مسميات رقى وتمدن وبروتوكولات، اتبعت مقاصدكم السامية

أتلذذ بخبياكم المكنونة فأعجبتُ بفكركم الطامع الهادف، وعلى أتفه ذلك من كان يملك قيراط أراد تملك تاليه وعند امتلاك تاليه أراد المدينة بأكملها، ادركتم تحت سحب الاحتكار وحب التملك فعُصمت أعينكم عن الأجواء وعن الإناس وبصرتم مقصدكم فقد، نبتت خيركم حصدت شرًا.

تجيدون التسلل من أجل المقاعد والتفاخر والتباهى والتعالى حتى جعلتم من حلائلكم غايات وصولية، لم تتوقف غايتكم عند نمط معين فأدركتم اللاحدود في ذلك حتى تلاعبتم فى نص الأديان عند اكتشاف نواياكم وأزيلت الأقنعة ففرضتم أديان وشرائع لأهوائكم فبات الطموح هو الغالب والمكسوب.

أنا ومن بعدى الطوفان مقولة ومثال شهير استطعتم تطبيقه بحذافيره ولكن يتم تطبيقه من خلف الأسوار أي الطعن والغدر من خلف الأعناق ولا جرأة للمواجهة مثلي فأنا الجرىء والعاص الأول ،أنا الملعون ، وهالثعلب معبود فكركم فى اصطياد الأهداف، أنتم لا تجرئون الحقيقة وإن حدث في العلن استنكرتموها فى الخفى،تلقون اللوم علي وعلى أبنائي.

لكن حذاري نُلت منكم ما يكفي لتشاركوني النار، جاء وقت الحسم

أنا الرجيم .. أنا السبيل .. أنا مشرع القوانين .. وأنا حاكمكم

يامحكومين

هذا قانوني تعلمتموه وأتقنتوه من تلقاء غاياتكم

أنا ثم أنا ثم ذاتى ثم ذاتى ثم لذاتى ثم ملذاتى

فليكن ما يكون

****

بعد رحيله عنى وخوضى في مؤلفتى انتبهت لما كتب ودوَّن لأمسك بكلماته وأقرأها بتمعن ونفسى تصاحبنى بل تسابقنى الأسطر يالها من بصيصة متسلطة.

لقد تعجبت من أسلوبه وكيف يعادل أفعالنا بميزانه، هل حقًا نحن من نفسد كل هذه المفاسد؟

أراها تضحك لما ذرأ على من غضب، كيف يبيح لنفسه هذه المبررات دائمًا ؟

لتجاوبنى هذه العنقاء ساخرَة منى:

- كيف تستعجب وتغضب وأنتم فاعليها وهو الحق؟

زادت من نيراني:

- أنا لا أحتاج لبذاءتك أيضًا، فأنتِ منه.

تضحك وتزيد من انفعالى، لثوانى يهدأ فكرى وأنا أحاول التغنى بإحدى الأغانى المفضلة لدى متجاهلاً كلماتها متناسيًا العالم أجمع حتى أفتتح فاهى التثاؤب، إنه وقت ارتداد الأجفان ومنها توجهت إلى غرفتى، اعتليت سريرى وكانت هى المرة الأولى منذ أن خضت فى كتابة تلك الرواية الراحة بسريري.

روحى تتأوه داخل دوامة سوداء، أحتس بدوار يأذيني، فقد

جسدي توازنه، هناك من يستدركه وينادينى إلى عالمه الخاص، وإذ بى أبصر جسدى هائمًا على سريرٍ تعلوه الستائر الحريرية الملكية، ليحيطنى ذلك القفص المتوشح بحرير من كل الجوانب، اعتدلت من نفسي قليلاً حتى جلست لاستكشف ما أنا فيه، غريبٌ هذا، إنه بلاط ملكى.

تدخل مضجعى بسلاسة قطة منعمة، جسدٍ ملتف بوشاح براق لامع وأخر يخفي جمالها، فإنها تثير غرائزى قبل فضولي، إغراء من نوعٍ جديد يضرب دمى ويزيد من ضربات قلبى ويغفل عقلى جانبًا ليسن حيوانى مخالبه، تعلو نداء الشهوات فالأمر الآن خارج عنى فليضع الكل حاله مثلى فلست يوسف الصديق، أقتربت بريحها لأشم عبق الورود الفرنسى الثائر، لا أهتم بالنظر إلى وجهها الآن فيضان دمي يلهيني وعينى تتفحص شيء يعنينى.

تزيح الستار عامدًة ذلك، بريقها غلب النعيم وغاب وعى مطلقًا وعلا صوت مستذئبٌ، فالفريسة أمامى ولن تنال منى مهرب أبدًا،همسٍ فى أذنى وأنفاسً تشعل فتنة اللهيب، نعومة جسدٍ أعلوها والتحامها يقوينى .. ملامسة الأنامل تشجينى أحب هذا أعشقه أم خيالى يناجينى، تقلبُ جسدى لترأسنى واهتزازاتٍ هى النعيمِ فالأذرع مشبكةٌ والأحضان تدفينى.. صرخات الفم عاليًة ولذته تكوينى حتى باء موقفى اختلال الموازينى.. وتنقذف بكورتى وحنانها يواسينى.

أحسست بمياه غمرتنى وأنا ألوح بوجهى وبيمينى فلامست جسد مرافقنى ناعم الملمس رطبًا يجارينى ومنه انتفضت من نومى وجلاً وإذ بريح تكسونى.

فكرت فيما حدث فهذا لم يكن حلمًا عابر قط، وجلست أتذكر همساتها حتى سمعت من ينادى بحبيبى، التفت أبحث عن مصدر الصوت ولم أجد شىء، كيف تحبنى ولا أعرفها؟ وكساد الوحدة قطر موازينى.

****

(٥)

الحب يهدف مطلبه والقلب لا يهاب الهدفُ ..

والأبواب ستقرعُ وفى النهاية ستخضعُ

***

بأنامل الظلام الحالكة يتم تعويذه متممًا حتى هبت رياح عارمة فى غير أوانها، يكاد الجسد منها أن يتطاير مثل ورق الشجر والعظام تحاول التماسك ومنها الأسنان تكتز فهذا شابه مراسم ترحيب ما، فجأةً وانبثقت عينان مريدتان مخترقة تلك الطقوس من الحائط المخطط بالدماء وهو يرمقهما لترتعد أوصاله وهو يجاهد التغلب على أحواله كى تهدأ، تحملق العينان به حتى قتم نمقها فباتت دماء متجلطة مرعبة ولكنه مازال مكملاً حتى أشهر فاهاً مكملاً الوجه والهيئة فتصدر منه ضحكةً ساخرة، اخترق الجسد الجدار ليحوم حول ذلك المرتعد في عدد من الالتفافات، لا حيلة له إلا غلق جفنيه مع محاولة التصلب لكن يفضحه قلبه بقطار دقاته الجارف فلم يرى من قبيلته مثل ذلك أبدًا، هو صاحب اللقطة الأولى، هو من استطاع إحضار الملعون، سرح فى أحلامه قليلاً كيف سيصير رئيس القبيلة من بعد ذلك، فلأشتد حتى أتمكن.

افتتح جفنيه بعدما استقرت ضلوعه وحواسه وشدت من أزره أحلامه ومنها توقف المريد عن حلقاته وبدأ يقارب وجهه بوجه الأخر حتى كاد يلتصقا، صوت صداه صارم مناقض الضحكات:

- ماذا تريد يا هذا؟

اخترق الصوت جدران جسده ليجعل منها هشًا والأدرينالين انتشر ليزيد من ريختر النبض، الوجه يجاهد انهياره ليخرج صوته مهزوزًا:

- هل أنت هو سيدى؟

أجاب بريحٍ مستنكرة ساخرة:

- لا لن يُبصر أحدًا سيدى، بل أنا من يمكن إعانتك ولكن شرط أن تسجد.

****

أكملت الأم حديثها حانية الظهر غلبها حزنها وهي تشاور بيدها على الأرض الزرعة:

- هناك جزوعٍ عارية في أرض بور لا تنفع، أسفل الجزوع وانبشي لتجدى حقك المدفون.

أومأت هيردميس بالإيجاب لتأمر جسدها بالنهوض، ليقبل معها هذا الأمر المفزع وهو خاضع، تقدم بخطواتٍ هرعة والعقل فيها لاشىء تقبل وفكره قد سرح.

تخاصم يدها حقلها لأول مرة في حياتها حتى الورود قد لُحظت ذابلة حزينة بتلك المقادير، قد مات من زرع ليحصد غيره، متجهة بلهفة إلى تلك اللعنة التى كانت سبب فى عذاب أبيها حتى وصلت ، قامت برفع سواعدها ويداها ناشطة تطرق الأرض كيد أعدت ذلك وهنا نست أنوثتها وكينونتها، هاجمت البور بقوتها

ليطير الطين منها يمينًا ويسارًا حتى رأت ملامح بذوره جلد قاتم متربُ، كتيب لم يمسه التأكل، غلافه شابه كساء الأسد ومخطط بحروفٍ مبهمة، يلتفه ما شابه الملح كتحصين له، نزعته من القاع بعنوة فإنه متلاصق.. تأقلم فى مقره بمرور الأزمنة، همت بمسح الكتيب وتقبل بيتها وعندها حل خفافة هواء قوى ليهاجم عمدًا الأجواء متعمد يدها فهو رافض وجود الكتاب فى ذلك المنزل، صارت ريح عاتية غابرة ومن ثم دوامات مزعجة تحمل بالأتربة فهناك من يعلم بوجود ذلك الضيف، تذكرت ختام حديث أمها:

- هو حقٌ لك، لكى فيه ما شئت وإن لم يكن مطلبك فلكبير الكهنة وألقينه.

بات فكرها يتلاعب أتفتحه أو تبعثه لكن الأجواء أغضبتها وأثارت حاسة الفضول بها، تأملت جلده السميك لتفتح أول ورقاته البردية المخيطة بحبال صغيرة المسام، بصرت حروف ليست معية ورسوم ومنها كان صراخها المفاجئ.

****

احتلت علامات التعجب جباههم لهذا الأمر وهو فى انتظار من سيصدع لكلماته فأومأت صاحبة الرداء السماوي بالقيام من مجلسها ولاحقتها أم الرداء الأسود ولكن الأخيرة أبت القيام من موقعها، فهى لم تعتاد الأوامر من قبل تبدو كحاكم سابق.

تسابق الاثنان حتى أتيا بالعصاة المطلوبة ثم جلسا ككلاب أطاعت سيدها وهي تلهث منتظرة جديد الأوامر، مرر نظراته بينهم ثم بدا كلماته:

- سأجيبُ عن أسئلتكم بعد معرفتى برحلكم.

بدأت الغجرية حديثها فهى المفضلة له حتى الآن وأول من اشتهته نفسه:

- أدعى ميلا الماشطة المفضلة لسيدتى.

وأشارت بيدها لصاحبة العقد الرابع مكملًة ما بدأت:

- هيرمن، لقد رعانى قصرها بعد أن اشترانى سيدى وتعلمت وتدربت حتى وصلتُ غرفتها وأصبحت أنا الأولى فى جوارى القصر.

ثم أشار بهز رأسه لتكمل أخرى:

- ادعى سيبا زوجة رب السفينة لازارو وكنا نحتفل على متنها والأغلب كان مفعم بالخمر وفجاءةً هب ريح ضرب السفينة رأس على عقب وبات أنوبيس بالجميع يحتفُ ويلحقُ.

ثم لاح لهيرمن كي تكمل ولكنها مزمجرةً لا تريد التحدث لم ينتظر ثواني حتى قام من مجلسه وقال غاضبًا:

- هذه جزيرتي وأنا ربُها، من يجلس فيها هو طائع لى أما أنتِ فأغربى.

أشار صارخًا بيده مكملاً:

- أما هذه فهى الغابة الشيطانيةُ فلاسبيل لكى معنا فأمكثى فيها.

***

خر ساجدًا لمولاه ليقدم له ولاء الطاعة المشترط ومولاه ضاحكًا متباهيًا بانتصاره الجديد، تابع مكثه على ركبتيه قائلاً فى خشوع بصوتٍ سأل:

- مولاى أريد الأمان والمعاهدة

اعتلت ملامح النصر ريحه ليومئ برضاه السامي عن عبده الجديد مزفرًا:

- رأس رضيعين وأجنحة غرابين وستعرف كيف ستناديني؟

انتهى من تلك الكلمات نافثًا ريحه الغابر فى الأرجاء واختفى، نهض الأخر فرحًا بنتيجته وتلبية طقوسه ودعواه فهو على أعتاب اعتلاء العرش والمكانة في قبيلته، أنهك جسده التعب حتى غطس فى بحر النوم بموضعه، لا يستطيع الرحيل إلى قطيعه فى هذا الظلام القاتم حتى لا يهاجمه أحد حيوانات الغابة المفترسة.

أضاء الأرض نور الصباح وتتلاعب الطيور في السماء لتسمع أغضان الأشجار وتُلبى الورود والأزهار والحيوانات منتشرة فالقرود متسلقة متداعبة والضباع متنهدة والذئاب واعية والكل سرح فى مرزقه ويخترق الجمع صوتٌ عال متردد، يسمع المشارق والمغارب من بوقه:

- إمرام

***

تُعاتبها مرافقيها بالنظرات الصامتة الواجثة فهن لا يدرين معاملته لكنه أقدم بالخير إليهم لولاه ما بدا لهم نفسًا ولاحقوا موتاهم، وهى حتى الآن لم تجب له أمرًا فماذا تنتظر منه؟ تقدم

التمرد ألا تتذكر موقفها هى الآن وحيدة داخل جزيرة وقد رحل عنها عالمها، تضاربت قلوبهم ممزقين بينهما لكن المقاديرُ آمرةً ولم تكن يومًا عبدت لأحد.

أردف بعصاه خطواته جازمًا لا يلتفت وراءه لكن الخبث مكمنه ويعلم أنه الغالب.

غلبتها فطرتها الخجولة، كانت من عاليات قومها وصارت الآن مبلية بذلك الأشعث، خاض خطواته وهو يعلم ماهية الجميع.

تتبصص حولها باحثةً عن مأوى غيره فلم تُلد جارية لأحد قط ويلاحقها عقلها بغابة الشيطان، اعتلت المخاوف دمائها وشحب وجهها معبرًا عن ضيق بلا منفذ قد ملكها ليس بيدها شيء، صرخت جاهرة:

- أيها الكاهن.

تخلت عن صمودها معلنًة استسلامها، سمع ندائها فابتسم بمكر الثعالب المنتصرة لكنه استنكر ما سمع حتى لا يبيح لها كبريائها الوقوف والعصيان أمام مطالبه فمازال الطريق بعيد جدًا أمام الكلاب ولها أن تتدرب على ذلك النحو، تعمد تجاهل ما سمعت أذناه، غلبها ظن خيرها وعدم وصول صوتها حتى باءت تكرار النداء:

- أيها الكاهن.

أصدرت فتاة زفير الاستبسال اللاذع، سمعت أذناه صراخ الجميع راجيًا فقد نال ما أراد هواه وقد خاض الناهية.

التف إليهم ناظرًا ليبصرهن مهرولين، تقدمت أمامه منحنية الرأس فى وقفة اعتراف بالخطأ وهو أمامها كهلٌ شامخ البنيان وقلبه مغمس فى إبريق من السرور والبهجة فقد زاد الجمال جملاً وقد نال مُراده.

تتنهنة بصوت متلهث الأنفاس:

- أدعى هيرمن زوجة بانيشرا كبير المحاربين وكنـ...

قاطعها ملوحًا بيداه غير مباليًا لما تقول:

- لا أريد الاستماع اتبعونى

سيق الجمال لسيده واللجام مؤكدت والأقدام مغامست والرمال فرحة متباهية لم يمسها نساء من قبل، قاد الذئب النساء بفكره الداهية.

***

أقرت الأم قرار الهرب من الأحزان، قرار النسيان هو الحل، قرار بور الزرع وهجر الأرض والعودة للأوطان، قرار مفارقة ورحيل الذكريات، هو أصعب قرارٍ ممكن أن يتخذه قلب في حياته، كيف سيتناسى العقل؟ لم يجد عالمًا أو مستكشفًا حلاً لهذه المشكلة إطلاقًا إلا حل وحيد وهو الجنون أى تتخلى عن العقل ذاته من أجل النسيان، أعلنت الأم معاودتها لنبعها للأهل وما كانت عليه قبل لقاء راحلها.

أحست اليتيمةُ بثقل إرث أبيها كما شعرت بالوحدة التى تزعزع الكيان التى لن تقويها على ذلك مطلقًا، لم تتصور تلك

الهموم يومًا، فهى لا تملك إرادة أبيها حتى تقاوم أنسٌ وجنٌ فقررت التخلى عن هذا الحِمل وإلقاءه إلى كبير كهنة أمون أي ستتخذ مسلكها بصحبة أمها إلى إيجبتي.

تشابكت الأحزان والوحدة وتصاحبا ليسلكا الطريق معًا ففي حالة عدم قرار الفتاة كانت ستيتم من جانبيها أى أب وأم لكن يشاء القدر أن تعرف مقدور تحاملها ولم تتلاشى إمكانيتها العقلانية وحكَّمت عقلها لينتصر على قلبها.

أخذة بيد صغيرتها والأهوال لن تكل لتعاود ذكريات مضت من سنين وهى مقبلَة زاهية بصحبته لم يخطر بذهنها يومًا ما حل لها ولكن لا مفر من الموت، أدرك الجمع صعوبة الرحلة فالطبيعة أعلنت سخطها مسلطة بعساكر رمالها وفرسان رياحها معكرةَ لصفو القرار والموروثة محملة كتيبها فى وشاح كتانى ملتف حول خصرها كواقى وحافظ، الطبيعة تعاند أم هذه أباطرة الخفاء! لا يستطيع الاقتراب منها هل لها من حماية تحيطها؟ من قبل الراحل أم ماذا؟.

المرافقان مقصدهما طاغ لا عوج له والجوع والعطش نار الوحدة فالطريق طويل ينهش الوجدان لا رحمة به، تتضارب أقدامهما والعزلة سيد طاغ ولا حامى لهم ولا واق، الأم تجاهد والبنت فرسُ ملاقى حتى دلفا فى الترحال بئرًا نبع صاف، روى منه ظمأهما والبطون حالها شاقى وأكملا سيرهما حتى الرمال تتلاشى وندرة ريح أتية مثل قومها الآتى.

الأجساد منهكة متعبة والإرهاق طاغى والعرق أنهارًا جمدت

من ريح وهوائي، فهى رحلة يومان فزع وإهلاكى تغلبا على الخوف والصراع مازال باقى ولم يتذوقا نوم ولا راحة للأكتافِ.

***

١٩٩٥

في مراحل الغزو المعمارى الكاسد، فى مراحل التعدى على حق الطبيعة والتهكم عليها وطمع الثراء والأملاك الفاحش، بدأ انتشار الجرف واستبدال الخضرة بطوابق حمرية مطمسة ببعض الألوان حسب الأقاويل ذلك راجع التكدس السكنى وتزايد المواليد وإلخ لكنى أظنها غلبة الطبيعة البشرية وليست غلبة الطبيعة ذاتها، لكلٌ طموح طغت على حساب اليابس الأم.

فى إحدى القرى التى غزاها ذلك الجاسر قرية بلتان مركز طوخ محافظة القليوبية، يسكن محمد وزوجته هناء فى أحد المنازل طينية البنيان بعد أن عانا فى تلك الزيجة بعد أن واجها زعابيب ما قبل الزفاف وانتهاء رحلة الحب المعروفة لدى أهل القرية، وافق القدر على أن يجمعهما تحت سقف منزل واحد وسماء واحدة، وبعد مرور عام من تلك الزيجة أنجبت هناء الطفلة الأولى لها وهى مريم وغمرت السعادة الأهل والأحباب، لاحظت الأم بعد ورع صغيرتها الخمسة سنوات تباعد زوجها نسبيًا مما أدى فكرها المريض أن الزوج مغرم بأخرى فدقت ناقوس المشاكل الأسرية وكأن زوجها جيمس بوند المعشوق لنساء الأرض حتى وسوست لها إحدى جارات الخير أن تذهب للشيخ عرفان صاحب الكرامات الكبرى وجلاب الأحبة ومعمر المنازل وألخ مما زيـغ وأومأت بفكرها راضية إليه وشكت له ما ينشب يوميًا بينهما لكى

يعطيها العلاج السحرى فإنه حلال العقد ذلك بعد أن يختلس منها مبلغًا واجب العمل والشغل وقيمة إرهاق عفاريته الخاصة وطلب منها أثر من ملابس الزوج وهى معصومة الأعين جهلة الفكر والبصيرة، خدعها تزاحم الإناس على دجله وبخوره المعتلية الطائشة فى الهواء وهى تريد حل مشكلتها المبتدعة، وبالفعل ذهبت إليه بأثر زوجها مرحبة مستمتعة لما تفعل وأجابها عرفان أن تأتيه بعد ثلاث ليالى لحين انتهاء العفاريت من العمل الشاق ولا تنسى أن تضع قيمة هذا الشقاء، بعد انتهاء الليالى عاودته لأخذ العلاج ليعطيها ورقة وبعد قال:

- أحرقيها على أعتاب منزلكم

وفعلت ما أراد ولحق ما لحق بزوجها، قد أصابه وابل يسمى بالربط فلم يعد يقربها نهائيًا لتشتد الحرب النفسى أكثر وأكثر وتسيطر الأوهام وتعتلى والبنت مصيرها غير معلوم وفى أول تصريح للطفلة:

- ماما.. أنا بشوف خيالات سودة صغننة بتطير

تتجاهل الأم ما تسمع مستهزئة بذلك والأب تنازعه نفسه وبدأ رحلة المرض الوهمي والذهاب للمستشفيات والدكاترة الغير مختصة والمختصة حتى صارحه أحدهم أن يذهب لشيخ ممن تذاع له الكرامات، وتصاحبه قدمه إلى الدجل والشعوذة وحاط المنزل الكآبة اللصيقة حتى وجد مطلب بحثه لذات الشخص صاحب البدع طالبًا إياه بحل معضلته حتى صارعه الدجال بكلماتٍ متراصة:

- هناء مراتك عملالك ربط وهي اللى مسببالك كل المشاكل دي

اخترقت طعنات السيوف جوفه وعقله يكافح تلك التخاريف فإن شفاك فهو صادق وإن لم يفعل كاذب، بالفعل صدقه اللعوب وحل ربطه وتيقن وآمن محمد بأقاويله وواجه هناء ونصبت المعارك حتى اهتزت بكلمة:

- نعم ، روحت

ولم يستمع إلي اكثر من ذلك:

- أنتِ طالق

ورحل هو عن مسكنه ليتخذ مسالك أخرى، لم تكن هذه قصة من واقع مخيلتى بل هذا جهل منتشر وفساد كاسر فالأغلب غمرته هذه المغامرات من قرب أو بعد أو حتى من مسامع، فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ.

وفى زهو الصغيرة مريم وأقاويلها:

- ماما فى حد بشوفه بيلعب معايا.

والأم تعاند التجاهل، حتى بلغت الصغيرة مبلغ الأنوثة لتتزايد عليها الأضغاث والمخيلات لتحاور أمها في أحد الليالى:

- ماما أنا شوفت واحد قصير لونه أسود وعينه حمرا بالطول واسعة ماسك أيدى وبيورينى تماثيل صغيرة وكبيرة فى مكان ضلمه، وبعد ما صحيت من النوم لقيت خصل شعرى واقعه وفى بقع ورم في كتفى كتير.

لم تعى الأم ما قالت الابنة غير:

- أضغاث وبيتهيألك.

تتخذ مريم مسلك البحث عن تلك الأعراض في الكتب.

***

وصلت الأم إلى إيجبتي فى عهد اعتلاء الحاكم بتلين الأول العرش وعرف هذا العصر بالعصر الذهبى الأكثر ازدهارًا حيث توافر لديهم الذهب جبالاً وندر لهم الأخشاب فبدأوا استخدامه بديلاً لكل شىء ،وعرف هذا العهد بارتفاع مسلاته وتماثيله حيث أراد بفكره أن يعلو تاريخه جميع الملوك الحاكمين تالية، اشتهر هذا أيضًا بالابداع في العلوم الفلكية والفكرية.

طرقت الأم أحد الأبواب وبرفقتها مدللتها اليافعة، فتح الباب امرأة خمرية اللون في بداية عقدها الرابع مرتدية ملابس كتانية تشابه خدم القصر الملكي، تتلاقى الأعين فى اندهاش صامت وقلوبٌ صدعة من تلك المفاجأة، أرتمت الأجساد متشابكة محتضنة فى اشتياق وتري يلامس الذكريات لتندفع الأعين باكية متلهفة بشهيق مشبع لقائه بالحب الدامى ثم تتباعد الأجساد ببطء هشى وتتحسس الأيادى الأوجه وما شق به من عمر، مسحت الأم دموعها لتقدم صغيرتها:

- هذه جميلتي هيردميس الصغيرة التى أعانتنى على الحنين لك.

تختطف الأربعينية الصغيرة في حضنها متفحصة جمالها ومعالمها وتزفر:

- بنيتي كم اشتقت لرؤياك، لقد تعالى جمالك صاحبة القصر.

ابتسم الجمع فى لقاء أسرى مليء بكلماتٍ مداحة ومكث الكل في راحة ملقيين عناء الرحلة وراء ظهورهم فأصبح هنا المأوى الجديد.

***

وقف بجمعه أثناء سيره برهَّة ليليح بعصاه قائلًا كمرشد سياحى عتيد يقود فوجه إلى كهفه مهددًا متوعدًا:

- هذا محرم عليكم، ومن ستسول له نفسه لن يلقى إلا حتفه.

أكمل سيره بعد إعلانه المحارم دون أدنى اعتراض من السامعين حتى وصل بزحفهم إلى غرفته التى تعلو السفح.

تتحرى الأعين تلك الغرفة التى يعلوها سقف زعفى وجدار حجرية بعضها مثقب نافث للهواء لا يوجد فيها سوى أريكًة خشبية وبعض الأعشاب المتناثرة هنا وهناك، اعتلت علامات الاستفهام الأوجه فتسارع الكلمات:

- أعى ما تريدون ولا تستطيعون وسأتلو عليكم، أنا كبير كهنة أمون تفوق علمى الأسقف والحدود فلُعنت من القبل وطردت ووصلت إلى هذه الجزيرة الهاوية الفارغة وسكنتها كما ترون، لم أمكث في هذه الغرفة إلا أيام قلة لذلك لم أهتم بها وكنت أمكث فى كهفي حتى حللتن، لا يعنيني من أنتن ومن تكونن ولكن سيشغلني ما ستفعلن، لن أقيم معكن هنا حتى تعتلى كل مليكة عرشها ولابد أن تتعايشن ولا تضجرن، بات هذا

واقعكم، مطعمكم فرضٌ والبرية أمامكم وما تشتهين، الخيار لكُن والغد بيني وبينكن.

انصرف بعد إلقاء محاضرته الخبيثة متوجهًا الكهف وتركهن مشتتين بين الماضي وبين الحين والصمت لغة يعلوها التشتت والتفكير فلا وجود لمنقذ من بين يدى هذا اللعين والاعتراض ما هو إلا حتفًا يقينًا.

بعد مرور بعض من الوقت فى جدال فكرى أردفت هيرمن خطواتها الخروج من هذه المقبرة الغير ملائمة غير مكترثة لما سمعت ولكن أومأت الرياح غضبها المباغت بعاصفة رملية كادت أن تخلع فكيها وأن يكسر عظامها من منبته وكأنه قد سخر تلك الرياح لطاعته وحراستهم واخترق المسامع عواء ذئابٍ تقترب حتى أوجس الجمع خيفة وعادت أدراجها عما بدت والكل مرتجف داخل أحشائه منتظر حتفه بعد فعلتها اللعينة فقد أصابت الكل بتمردها وفجاءةً عمت السكينة مرة أخرى يا له من مخطط محكم أنهم وقيعة متجبر يدرك جيدًا ماذا يفعل؟، عبرت الأزمة بسلام وأدرك الجمع عزيمته الذاتية في مواجهة المخاوف والصعاب ولم يهيأ لهن الفكر ولم يتوقعن بأن كل ما يحدث لهن من تدابيره وتعاويذه السحرية وإنه بتلك المقدرة.

نهشهم الرعب نهشة نمرٍ يقتتل حتى غفلا منكمشين متلاصقين كالبنيان وقد أجاد بالفعل ترويعهم ولم يرحمهن بل لم يتركهن سدى حتى لاحقهن فى منامهن بكوابيسٍ صرعة فزعه أثر تعاويذه التى لا تهدأ ولا تكل.

بعد مرور يومان

أشهرت السماء نهارها ومازالت الأجساد مستلقية في غياهب النوم فإنهم تناسوا عهدهم السابق واعتادوا المدينة ورفاهيتها، اضطربت الصغيرة منقلبة واستيقظت لترمق الخالة هيردميس أثناء ارتدائها ملابس كتانية خمرية اللون ووشاح يعلو الرأس ليعصم الشعر من الظهور فباغتتها ملاحقة تفترك أعينها:

- ما حالك فى هذا الصباح؟ أراكِ تعُدين عدتك للذهاب.

ابتسمت لها وهى تقترب بخطواتها حتى صارت أمامها وهى تربت على كتفيها فى حنان مدفن أحِتُرمت منه وجاء موعد إظهار بذوره قائلة:

- ذاهبة إلى القصر فأنا من المشغلين به

اهتزت برأسها فى غفلة تحاول تلاشيها من إعداد بعض الكلمات لتجهر بها، الفكر يهاجم وقد ملت منه وكانت كلماتها صريحة غير مرتبة:

- المعبد، أريد الذهاب له

أعتلى الوجه علامات الاندهاش والاستعجاب من تلك الكلمات ومنه تسارع اللسان فى الخطب:

- ما بالك بالمعبد يا عزيزتى؟ أتسلكين ما لحق أباك!

- لا لا مالى مثل ذلك، أنا أريد أن أبصر الكهنة لاستشعر وجود أبى.

وقع حديثها بأثر ذكى، احتضنتها الخالة وحنت براحة يدها على

وجهها البرئ فهى عاطفة الأمومة المفقودة نبع الراحة والطمأنينة، إذ بها تزفر بهمس ناعم فى أذن صغيرتها:

- قريبًا يوم التنصيب وستأتين ما تريدين.

اعتلت البسمة الشفاة وقد أدرك الفكر تحقيق خطاه فالمقصد بات قريب والموعد بضع لحظات.

***

اخترقت الأشعة المنافث الجدارية ملاسعة للأجساد بلا أية رحمة والأبدان تحاول الهرب فتقلب جانبيها بين خلسة وأخرى حتى اللاسبيل.

بات النوم صعب المنال فقد هجر الأبواب بعد أن كان الحل الوحيد لذلك المرار الوقيع وهو الاستيقاظ، مازال التثاءب مفرط يداعب الشفاة ومنه تدمع العين المحملة بالعِماص والأيدى تمسح ما بدر ليتفاجىء الجمع بسلة فواكه طازجة ملقية أرضًا وبجوارها قوارير من الماء حانية بجانب السلة، تتلاعب الأفكار كيف دلف الكهل هنا ولم يشعر أحد؟ أكان يتأمل أجسادنا المتعرية؟.

أنهال الجمع غير مباليًا لما طرأ تناسين ما حدث مُنتهكي حرمة السلة القاصرة، فإن البطون تنازع وتتأوه منذ ليلتها وهو مطلبها الآن فمن يستطيع إيقافها.

امتلأت الأجواف فشبعت واستقرت الأنفاس فزفرت والطمأنينة قد سلكت، أردف الثلاثى مخطيًا باب الغرفة بأقدامه مسلمًا للطبيعة ناظرًا لتلك الماء الذي لا يدرك أيسبها أم يشكرها، والأنامل داعبت

خصيلاتها المتناثرة والفاعل هو الهواء الذي لا حدود له فالسماء سماءه والأرض ملكه، داعب برياحه الجمال المترنحة واليابس من أسفل أقدامهم تحسده.

نظر الذئب من بُعد على مصيدته والشهوة تنهشه لكن مطلبه مازال معلقًا مع الزمن، جالسًا لبحر يحدثه فى حوار لا يفهم إلا من جانبه وهم يخطوه بخطوات رقيقة تلامس الرمال المندية وأجساد تتمايل كالمعازف ومن أعلاهم طيور محدقة وسماء نادية، غزلان بلا صائد.

ردف الجمع أحجارًا متراكمَة بعيدًا عن مجلسه فهو يتأمل في صمت أم يستريح من عمله الشاق وهنا كانت الوساوس، كيف لهذا الرجل أن ينقل كل تلك الحجارة؟ أم إن هناك من يساعده!، دنت الخطوات منه بل أن الأقدام خطت زبد البحر على استحياء وما كان منهم إلا أن ألقوه التحية والشكر لما فعله معهم وبادلهم ذاتها بابتسامة خبيثة، تابعت الخطوات مجراها مخترقة الأمواج لتنحنى الأخيرة فى خشوعٍ لهم، تمايلوا كالأزهار فى الربيع والتقطوا قليل من القطرات حتى يطفو وجوههم، محدقًا عن بعد متأملاً دلافين البحر وهى تلهو.

نهض من مجلسه متخذ طريق الأحجار مقصده حتى وصل وحملت يداه أحد الأحجار ليقوم برصها فوق سالفها كبناءٍ محترف ليس ككهلٍ أضعف ورق، لاحظت ما يفعل إحداهن والتفتت الأمر لهم ولكنهم أومؤوا بالرفض فى معاونته، تركت جمعهم لتذهب إليه فى ورع كفرسٍ يتباهى برقص خطواته.

أردف تلك الغجرية تقربه فى صمت محيط بالشغف حتى خاضت محجره أقدامها بدت تعاونه فى إزاحة الحجر فعظمها مازال لين لا يستطيع أن يحتمل ثقله، ألتوت بجسدها كالقوس الهادف واليدان تشد، تمسك ، تزيح فى عنفوانية زائدة حتى لامس قوسها جسده فباءت كثقاب اشعلت النيران والوجدان وما كان ردها إلا اعتذار عن ما بدر عنوًة عنها.

تهدف ما تريد فى محاولة أخرى، اطلق زفيرٌ محمل باللهب وهى باسلة ملتوية للوراء تزحزح الحجر للوراء حتى لاصقت محجرة، أشهرت الشهب والنيازك عن حالها فلاسعها الهوا حتى ابتعدت فقد دفعها المنطلقُ كأفعة تخرج من مخضعها، تعى ما تفعل وتتقنه حتى بدلت المقعدُ لتصير هى مرودةُ الذئب الذى أصبح يلهثُ، شاهرةً ضحكة تهزمه تلخص منها حكاية ذلك العجوز الذى ولعت إثارته فقد فهمت مطلبه المتوارى من عينيه التى برزت أمتار.

بركان يدخن مركزه يريد أن ينفجر فى انتظار قذفته، تقاطع دخانه بكلماتها المتقنتُ:

- أنا أعى ما تريد فهى طبيعة العتيد فأنا بصيرة الأسياد ومداعبة العبيد إن وافقت مقصدك.

تقاطع كلماتها المثيرة فى لمحة وهى تلامس خصره وتنزلق فى الخفى من باطن سرواله حتى مسكت الصلب ويداها منه مقيدةُ، ضاحكًة فى غنج مكملة ما تريد وإذ به يلقى الحجر جانبًا :

- تُعيينى رأسهم وهذا مطلبى الوحيد.

باعدت يدها من محجره بعد أن عتقت سراح عبيده وفى باله تمنى ساترًا ليلقنها الوعيد، تفوهت بهمسٍ فى أذنيه الجمرةُ والأنفاس تقبله:

- شاب مريد متخفى فى كهل خصى.

أراد المام شتات نفسه المتبعثر فقد أحيت بيدها مدفنه ومنها القلب قد صرخ، أومأ بلهثه موافقًا حتى لامح بصره فرتب فكره القلم وأطلق من فمه حبره ليبدع بكلماته المحملة بمكر الثعالب:

- وتعتلى التاليةُ.

راودها بالحكمةُ بعد أن بصرت قدوم اليافعة سيبا، فقد أرادت أن تنال ما حرمها الزمن منه أى الملكية ولو على هذه الأراضيين الخاوية فالعرش مطلب الجميع، التمكن ، السلطة، القوة التى يخضع من أجلها الجميع فهو وقت عرض الخبرات لتنول الملذات.

تغزلت بخطواتها الورعة المتهندلة حتى استباحت محلهما فتغردت بصوتها قائلًة:- جئت أشارك فى بناء حياتنا لأضع لمستى الخاصة إن لم يكن وجودى معارض.

رمقها بنظرة أهمية ورضا تعيها النساء جيدًا أي الموافقة ومنها سارعتها ميلا بالرد المنفس بالخصومة المبكرة :

- نحن أولو بيتٍ جديد، فلنوسعه هناء.

كلمات يهتز لها الهرمُ ويشق القلب لها الجسد، بدأ الخصمان استعراض مهارتهما فى انتزاع قلبه وهو يتسارق النظرات بينهما فإن الفرص هى من تتيح نفسها له راكعة فلتفتح جناحيك فإنها مقبلة.

لابد أن تشعل الغيرة الجالسة بمفردها هناك فهى غريزة نسائية معروفة، تنهش الفكر نهشًا ولا تشترط مكانًا أو عنوانًا مطلقًا بل تكمن فى الموهبة، المتعة ليست فى مطعم السمك بل المكمن فى صيده.

***

توالت أيام فى بحثها الممل الغير مجدى حتى أتاها منامها لتستيقظ فزعة كمن كان يحارب ويتعارك فى نومه، متذكرة لما رأت وتروى ذلك لأمها وهى موجعة متألمة:

- قبل ما أنام حسيت بحرارة وسخونه في ظهرى وسمعتُ أنفاس وكنت بتلفت لم أجد أحد ونمت شوفت واحد عايز يبوسنى غصب عنى وأنا عماله أبعد وأضربه لغايت ما ضربنى فى رجلى وقالى أسيبله حتة لحمه بدمها قدام البيت ولما صحيت لقيت مكان رجلى واجعنى وفى زرقان ورم.

سماع الأم بلا نفع مهاودة الكلمات غير مبالية كمن يستمع لمغني، وكان الرد الملئ بالثلوج:

- يمكن جعان يا بنتى اسمعى كلامه دوول عارفين أكتر مننا، ربنا يجعل كلامنا خفيف عليهم.

وبالفعل فى تلك الليلة وضعت مريم قطعة اللحم المطلوبة.

***

تعقب الصبح ليله فى سماء صافية وأرضٍ مرحبة وهناك أناس تتهافت من بقاع الأرض وهنا متوافدين من القبائل المجاورة ليزيد الازدحام بلة حتى يتغاذر الجمع ليسمع دبيب يدوى كالنحل

في الجبال ولم تسلم الأسواق من ذلك فصارت متراكمة كسوق حجارة وما هو إلا الشروق، هناك من يزين الأسوار وهنا من يرسم الساحات وأيضًا أصحاب الرايات وأولاد تلعب وتلهو وهم يرتدون تيجان نحاسية مزخرفة ومنها ترتدي البنات تيجان من خيطان وجاري التزايد على الميدان فالكل يبحث عن موقع ملائم للرؤية المناسبة له، الباعة نداؤة فى الممرات والطرق وصوت دفوف وتغريد نايات وعائلات تكمل تزيينها بالتيجان المتلونة الطاغية لمعان، النساء تتباهى بأعقاد الزمرد والعقيق الملتف حول رقابهن والعقيق الذي يزيد من جمالها بستان، أنه بوق التجمع.

تزينت بزينة أهل المدينة ليلامع بريقها الأراضيين والبنيان لكن اختلف زخرفها بعقد فيروزي لا يرتديه إلا الملوك والمقربون، تصاحبها الخالة إلى القصر لتبصر مراسم الاحتفال عن قرب فهى مميزة الآن، تتهافت النظرات والألسن من تكون هذه التى تهامس خطواتها اليابس وتراها الحيطان؟، تتأمل الأعمدة والبنايات الفارهة والتماثيل العملاقة المعممة بالتيجان وعيناها غلبها السرح والتيه واللمعان.

نفخة قوية المذاع مميزة تصغى لها الأذان انتباه ومنها لاح الناس موكب قادم لا ترى منه ولا تسمع إلا دبيب الأقدام المصاحبة للحربان فتنغمت الأرض زاعقًة بموسيقاها العسكرية، حراس يُرصون الناس جانبين موسعين للفرسان طريقهم وقائد يعتلى جواده يليح برمحه شاهرًا إياه عاليًا ليعطى إشارة للسماء.

فجاءًة توقفت الأقدام عن سيرها وتصدعت الأرض لرمحه ملبية والكل في انتظار تعاليمه ولا سبيل للعصيان مطلقًا، كرر ما فعل

سابقًا فوطأ برمحه مستقيمًا ليوازى رأس الجواد، مع إشارته خر الجميع سجدًا فى نسق مبهر لا تدري كيف أتقنوه؟ ومتى؟ الكل طائع لرمح فما بالك بسيفه!

اخترق السرب عربة حربية يعتليها فارس مصاحب رأسه تاجًا وشاهرًا سيفه وهو ممسك بيده الأخرى لجام الجواد، تنحى بعربته جانبًا وأوعى الجمع بأنه قائد الجيوش المقدام، تلاه عربةٌ ملكية يجرها عشرةٌ من العبيد الأشداء الأقوياء مزيتين الأبدان، مكملين بخطواتهم المنتظمة حتى لامسوا أولى السلالم القصرية فيخرج من بينهم أثنان بعد وضع العربة أرضًا ليمكثا منحنيين الرأس باسطين أكفتهم حتى لا يلمس الملك بأقدامه الأرض فتطير رؤوسهما جزاءً.

نظر للساجدين قبل أن تتخذ أقدامه الصعود، رجلٌ يرتدى كساءٌ مزركش مُرصع بفصوص الفيروز والزمرد الناصعة يبرز تقسيمات جسده القوي ويعتلى رأسه تاج ذهبي منحت بأفاعى وعصى التوحيد.

الجمع صم بكم فى سجود تام حتى العرش ذاته متمثل للأوامر، اعتلى الكرسى الملكى وهو شامخ الرأس ويداه تسبقه للأمام لتنير كفيه بخواتم الجعران والقلادة المزرقشة التى تلاسع الضوء بريقًا، القائد من ورائه مازال منتظرًا الإعلام حتى خافض الملك يده جانبًا وإذ بالبوق ينفخ ليصدع له الوجدان وترفع الرؤوس ليتأملوا الملوك والتيجان.

تتلصص من خلف الستائر والأعلام حتى تسمع تخبطات أقدام

على عجل فتلتف عقارب رأسها لتردف شابٍ مفتول العضل وسيم الهيئة ذات عينين برّاقتين وشعر ناعم تملأه ظفائر النحاس، ينمق من ملابسه فقد فاتته مراسم الاستقبال، تبسمت بعفوية لما ترى حتى ردف نسيمها وهو سرعان ما يلافتها مداعبًا هامسًا بصابعه على فمه حتى لا تفشي سره وينفضح أمره، تهز على عضدها خاجلةً لتضع يدها على فمها وتتورد وجنتاها وهو يضيق حاجبيه مبتسمًا فى عجب لا يدرى ماذا يفعل؟ وماذا تفعل هذه من خلف الأعلام والستائر؟ ومن هى؟، يلوح بيده بعد أن نمق رداءه غير مباليًا لها الآن بإشارة الوداع.

بدت أصوات التهامس تعلو فأين هو الملك الصغير؟ حامل العرش؟ حتى أقدم الوزير بخطواته ليهمس بأذن الملك بنفس السؤال السابق، فى ذات المجلس تتسأل النساء من حول العرش، بدأ الاضطراب يعكر صفو الأجواء حتى سمعت خطوات أقدام تسابق الهواء.

***

تتأوه وتنازع بين الالتفاف جانبيها فتتضارب الأنفاس وتتشلل قطرات الفزع من وجهها الذي بات مشحب الهلع فهى حرب لا نوم ولا استرخاء فهناك من يريد اعتلاء الجواد والأخير ثائرًا جدًا يرفض فينفض جسمانه ويركل بأقدامه حتى لا يستطيع أحد المساس به.

هذا ما لاحقها فى منامها هذا هو الوحش الجبين الذى اعتاد التهجم عليها وهى له نافرة، بينما هو لا ييأس لا يكل من محاولاته ينتظر لحظة الاستسلام حتى ينبشها بالهجوم.

ازاحت الستار عن هذا الكابوس المفزع لبابها الوحيد وهو الأم فبدت كالصداع فى رأس الأخيرة مسببة الآلام ومنها فاتخذت الكبيرة رحلة البحث عن مشايخ لعلاج ابنتها المنازعة حتى وصلت إلى أحدهم ذائع الصيت والشهرة، أتاهم المنزل بعد إقناع من قبل أحد الجيران الموصلين به.

شخص ذو لحية غلبتها الحناء لونًا سمن البدن فى منتصف العقد الرابع تعتلى جبهته دائرة المصليين مشيرًة عن وجهه الخمرى بعيناه البنيتين وأنفه المسمارى المنفرطح مخارجه وشعره القصير الملقط ببعض الشعيرات البيضاء يرتدى جلباب قصير أبيض كاشف عن منكعيه، يلازمه ما شابه صبيه فهو المعاون له بعد الله، صورة طبق الأصل من الشيخ فيما عدا جسده النحيف وجلبابه الأزرق ويمسك في يده حقيبة سمراء ذات سوستة كبيرة فضاء.

اتخذ الجمع مجلسه فى غرفة الضيوف وقد قدمت الأم مشروب الترحاب بعد أن أخرجت الكاسات المدفونة فى دولاب النيش الأنتيكى الذى غمر بيوت المصريين فإن الأم على استطاعه من فقد وليدها ولا تفقد كأسًا واحدًا منه ياله من فكر فارغ عقيم، الشيخ ناظراً أرضًا لا يرتفع له رمق ولا جفن.

تقدمت مريم المنتظرة حتى جلست أمام الشيخ وهو لم يبصرها فأخرج مُلازمة من حقيبته بعض البخور المتلونة بعد أن أحضرت الأم منقد مشتعل الفحم وألقاه من يديه مبعثرًا إياه لتلاصق النيران حتى انطلقت الأدخنة الفواحة المعطرة بالمسك التى تشهقها الأنف وتريح الأجسام، تشكلت الأجواء الروحانية

فبدأت شفاة الشيخ بالتمتة ومن ثم جهرًا بصوت منخفض يتلو بعض أيات من السور القرآنية ومرت بعض الدقائق والكل منصتًا حتى أكمل رقيته الشرعية فلم يُلاحظ حدوث أى تغيرات اطلاقًا فأزفر بصوته:

- مريم سليمة مفهاش حاجة

عم الصمت والسكون برهة من الزمن حتى كادت الأفواه التحدث ليخرسهم جسدها الذي انتفض فجأة من مقعده، وقوفها المُباغت يسبب الشلل وبروز الأعين، تشنجت الأعصاب والأذرع قيدت ومن ثم تمددت هواء كمن يشد خط مسطري بحبل خفى وإذ بالأذرع تُخدش بالهواء فى أن واحد بثلاث خطوط دموية مقطعة الثياب وإذ بصوت يخرج من فمها صارخًا جائشًا تقشعر له الأبدان فإن هناك من سكن لسانها:

- ع..ا..هـ..دتنى

وما إن انتهى من تلك الحروف إلا وضحك ساخرًا بصوت تهتز له الجدران ومنها سقطت مريم أرضًا تنازع وتخور، خرج من فمها لعاب يكفى لتفقد حياتها.

صُرع الجميع واحتلت المخاوف الأجساد وتلاشى الفكر جانبًا والتصق الكل بموضعه قد نهش الأدرينالين الوجدان لكن الشيخ كان له ردٌ أخر، أمسك بجلبابه مهرولاً ليعود شبابه فجأًة كالعداء المعتزل ومن ورائه صبيه، الفرائس تهاب من ذئبِ خفى ولا مخاوف تعتلى مخاوف المطارد.

***

(٦)

العهد وثيقة حياة لا يستهان بها فهى ظلك الظليل،

فالزم القواعد حتى لا تهلك وأرشد لها عقلك بفكرك

المتلاحق وأخطو بقلبك

لك أن تدرك أن تغفل ما أوثقت فهى العاقبة

***

جاءتنى هذه المرة فى غرفتى وكأنها تبادلنى المواقع حتى لا أيأس منها بالعكس كنت مستمعاص جوارها بل عاشقها، احساس رائع لا ينهك فاحساس زاد تبادله عند إزاحة الستار عنها لأبصر بطلة روايتى هارووديس بقوامها المتنعم وشعرها اللامع لقد سحرتنى بعيونها كاد قلبى ينفجر نبضًا مع كل هزة، تلاحمنا كأنسيين متزوجين عاشقين لانريد التفكك والتجزئة مطلقًا، أحسست بالعشق ليس بالشغف العابر، لا أريد أن ينتهى مضجعى، لا أريد أن أخرج من غرفتى، غفلةً انتهيت، رحلت عنى، لكنى لن أرحل سأحاول أن أغمض عينى حتى تعود مرةً أخرى.

محاولات باءت بالفشل الذريـع، نهضت عنوًة عنى فإن النوم لا يطلبنى وأعلم يا نوم بأننى متذكر كل لمحةٍ، كل هفوة، وأشكرك مع غضبي الشديد منك بأنك أعطيتنى ليلةً من ألف لياليك.

هاجمنى عقلى يذكرنى بكلمات كنت سانساها ذكرتها بصوتها الخافت فى أواخر ممارسة حبى لها المعمق:

- أردتنى فلتأتى بجريدةٍ من نخلٍ قاصر ولتقطف أوراقها تاركًا ثلاث ورقات ملتصقات في الجريدة وبقلمك المسك واكتب على الأولى اسمك والثانية هارودیس والثالثة عهد زواج وعند الانتهاء أدفنها فى أي حقل وأترك المكان وأرحل.

اتتنى مزعجةً عامدًة تعكير صفوى عن ضرتها تحدثنى مابالها بفكرى لتحاورني:

- لقد شغلت فكرك أم سكنت قلبك ألن تكمل روايتك أم رؤيتها تكفى.

نهضت وأنا لست مبالي فهى لخبطت أحوالى فإن تلاشت عن عينى حزنت و عانيت من رحيلها لقد سكنت قلبى، بماءٍ دافىء أطهرنى لكن الماء عاجز عن اختلاع عطرها من وجدانى لأتغنى بحبها، مسكينٌ من رحل عنه الثانى.

توجهت أقبل قلمى فهو من اتانى بها من عالمها الثانى لكن راودنى سؤالاً لماذا لم يزورنى شيطانى؟

***

أصابت الفاجعة الأم مما رأت وأدركت الآن صعوبة ما حل بابنتها، فما زالت الصغيرة ملقاة أرضًا كخرقة بالية، لا خافت ولا شاهق والصرع يهاجم السيدة بالدموع فالابنة مهانة مغشية الوجود، تلاطم وجهها وتجس بيدها الملقاة لكن لا إجابة فترجلت وخطفت كوب المياه ومسك الدجال الذي غفل عنه أثناء هروبه.

استرد الصدر عزيمته حتى زفر الوجدان والبصيرة تحاول جاهدًة أن تسترجع ما فقدت وما الجانى؟ العقل ناسيًا منسيا ما حدث له،

العظام مهشمة تتأوه وتعانى أثر ارتضامها أرضًا والأنف تغمره رائحة لا تفارقه تشعر بالغثيان والوجه هناك من قام بتغريقه بالماء.

بدأ الجسد يلم شتات أحواله ويهدأ من الاضطراب الذى غفله فقام بدفنه وهو ناسٍ يعانى.

اعتدلت بمجلسها سائلة الأم فى اندهاش:

- أيه اللي رمانى كده؟ وأنتِ بتعيطى ليه؟ في أيه حصل؟ أنا مش فاهمة حاجه!

غزت الأم ملامح الجنون هل فقدت البنت عقلها! أَم نسيت ما حصل! لقد هرب عقلها إلى مكان آخر غير هذا، كم كثيرًا منّا يأمل أن يفقد ذاكرته حتى لا يتذكر ما مضى له من مساوىء و وكزات، ما زلنا نبحث عن محو جزء بسيط من الذكريات ولن نستطع، ما أصعب تلك الأوجاع.

***

استكفيت بهذا القدر من الكتابة وكأن حُبها أبلانى، مازال قلبى يتأوه يصرخ وهمى يضغط بزناده الجبان، هرب الحبر منى ولا أدرى ما أخطوه ثانى.

قد مرضت منى الكلمـــات فى إغمـاءٍ الآنِ

ما حـل بقلبى حبـًا أتذكـــره وينســـــانِى

ياعشق هجر و رحـل أرجوك مسكين يعانِ

أرحم إن كنت ترحـم ضعيفٌ و حـــــدانِ

بدأت الكآبة تغمر أوقاتى فأنا أبحث كطفل فقد أمه يبكى ينادى لا يدرى ما التالى، لقد فقدت ميزان حياتى وفقد الطفل الحنانِ، أتخذت المجهود والتعب منوال للوصول إلى النوم واستمر حالى على هذا الوضع اليأس يومان ولم تأتيني ولم أشتم عبقها، يولعنى الاشتياق فإن عينى تنفطر على رؤيتها، بات أخر أمالى أن أتجول فى الشوارع والميادين باحثًا عن شبيهَة لها، باحثًا عن جسمانها ظل بينى وبين جنون العشق شعرةً حادةً وقريبًا ستنكسر، منَّ على الزمن بتذكر وصاياها فأومأتُ مسرعًا إلى المزارع والشجيرات اتلفت فى كل الأنحاء حتى وجدت عامل يزين الحدائق فطالبته بما أرادت وفعلت ما طُلب منى.

قتل الإرهاق جسدى لأعود إلى مركزى وكفانى تجول، أتأوه منتظر جديدٌ يلاحق بى أو تعاليم من ثانى، غمرت فى بحر الاسترقاء فلا أضغاث تراودنى ولا أحلام جذبتنى حتى استكفى جسمانى وأتقلب لأنهض مُغفلاَ لألامس جسمانًا جانبى ينعانى.

***

يَدُبُ السماء التصفيق الحار بعد أن أبصر الحشد مفتول العضل الشاب الوسيم، تتعالى النداءات والصرخات وهو يجيب محبيه بانحناءة ظهره احترامًا لهم ثم يلاق جمعه بارتفاع ذراعيه عاليًا ليشكلا قوسٍ كتحية خاصة موجهة للسماء وكأنه المعشوق المدلل للشعوب.

دقت الطبول قرعها لتنذر الصمت والكل أذانٌ صاغية، يجثوا الشاب على قدم واحدة أمام مجلس الملك من يحنى بصره ليقف الأب شامخًا مردفًا بخطواته على تلك المنصة ليخطب فى الجموع

ويداه متشابكتان خلف ظهره: - لقد اشتعل الرأس شيبًا بينكم، أيها الشعب العظيم، شعب إيجبتي.

يقاطع كلماته بصمت الأنفاس وزفرها فإنه يتذكر أيام شبابه في شريطٍ تذكري ليكمل:

- أفنيتُ شبابى بينكم شاهرًا سيفى لكل عدو لكل ظالم مستبد، كنت الجلاد لهم والعادل بينكم، لم أنصر ظالمًا أبدًا حتى سكنت المحبة جوفنا، زرعت تلك المقاليد بابنى وكان هو نبتتى ورأيت فى عيونكم محبته وبحكمة الألهة وبصلاة الكهنة ومشاورة ربائبكم وافق الجمع رأيى على أن ينصب زويسر ويعتلى العرش بعدى، إن أخطأت فليصارحنى أحدكم.

وأثناء ذلك الخطاب اختلس الشاب بعض النظرات للملكة الجالسة على عرشها وهي الأم فإنه يعمل على محاورتها بلسانٍ صامت وبعض الإيماءات التي يرفض بها تلك المكانة أي التتويج وما كان على الأم إلا أن تحملق له كى يكف عن الألعاب الصبيانية هذه، التفت عن عينها ليجد تلك المتبصصة من وراء الستار تحدق له وما كان عليه إلا أن يبتسم لها بسذاجة.

اخترق المنصة يافعتان ذات قوامٍ ممشوق في رداءٍ حريري لامع يغازله الشعر المنسدل الذى يعتليه تاج نحاسى متشكل بفروع الشجر وذلك ليزيد من جمالهم، ممسكة الأولى فى يدها تاج الحاكم الذهبى والأخرى حاملًة سيف طويل النهاد ذهبى اللون مرصع مخمده بعدة فصوص حمراء اللون قاتمة البواطن.

وقفت اليافعتان بجوار الماكث أرضًا والأب متوجهًا إليهم، يربت على كتف صغيره إشارةً كى ينهض ومن ثم التقط التاج من الأولى واضعًا إياه أعلى رأس الشاب فى بهجة وسرور لم يشهدها أحدٍ من قبل، ما أجمل تلك اللحظات التى ترى فيها مستقبل صغيرك يصنع أمام عينيك، التقط الأب السيف من الثانية ليعطيه لذلك المتوج لتمسكه يداه فهو العهد الجديد والمانع الرشيد، احتضن الأب ملكة الصغير فى ترحاب وسعادة لعلو هامته فى شئون البلاد فهى اللمحة التذكارية التى ستنقشها المعابد والجدران.

فارق المتوج محض أبيه متوجهًا لأطراف المنصة ليحيى شعبه وهو يخرج سيفه الجديد من غمده ليشهره عاليًا، إنه يهنأ سماه باعتلاء العرش وتتويجه، تعلو الأصوات من هتافات وصافرات منادية:

- عاش الملك، زويسر الملك

ومن هناك هاجم الخدم تلك الهتافات بقذف الورود من كل مكان والأزهار عاليًا وأخذ بعض من الخدم إلقاء العملات الذهبية المنقوشة بوجه زويسر وأبيه.

اردفت باحثة الأعين عن أصحاب الرداء الكتانى المعروف وأصحاب الرأس الصلعاء حتى أبصرت أحدهم جانبًا فأقدمته بخطوات مسرعة تهاب أن يتلاشى عن بصيرها، ألقت التحية الملائمة وهو يتأملها فى صمت مكمن ليجيبها التحية، لا تعى من أين تبدأ الحديث فقد غلبها التوتر ليبادئها هو الحديث:

- ماذا بعد التحية؟

زمت شفتيها لتبوح وتزيح اضطرابها:

- لقد أورثنى أبى كتيب وكان أبى كاهن ولكن طرد ووصانى بتسليم ذلك لكم.

اقتضب حاجبيه من كلماتها المبهمة التى يندرك تحت طائلتها أسئلة كثيرة:

- ولكنى لا أراك تحملين أية كتب.

سارعته قبل أن يزيد:

- سأتيك به غدًا لكن سامحنى أنا لست من أهل المدينة فلا أعلم أسمك؟ ولا أين أجدك؟

اعتلته الابتسامة ليجيبها:

- أنا الكاهن ممخاروا وستجدني فى معبد أمون.

***

تعالى الكبر على القيام بالمساعدة بينما التردد يتسلل ويحاول لكنها محاولات غير مجدية بالنفع فهى ذات تلك الطبيعة الكبيرة وليست وليدتها.

تـرك فتاتيـه فى المـنزل الخاضـع تحـت البنـاء وأتخـذ خطواتـه مصـاحبًا عصـاه إلى تلـك الرادفـة أمامـه، تقربهـا وهى لـه تتجاهـل لا تسـتمع لـه ولا تنظـر، وقـف بجانبهـا نـاظرًا تلـك الأمـواج السـاكنةً كأنـه يحركهـا بغضـبه المزفـر، ألـقى بعصـاه لتصـاحبها أي تسـكن بجانبهـا وهى تحـاول أن تـنهض وإذ بـه يفاجئهـا بمسـك معصـمها حـتى لا تهـزى بـه وتتركـه وترحله وهذا ما قد يغضبه كثيرًا، وهي أول مرة

يلامسها وكانت يداه تعصر متصلبَّة على يدها وهى تنازع تتألم ليحدق إلى بوقها لترى نيرانه اللاذعة مظهرًا نابه:

- إن عصا الكلب يُحرم وإن طاع فينعَّم فما بالك إن نُعَّم ثم عصا.

توقف وصك أسنانه وزم شفتيه مكملأ درسه:

- كنت رشيد سامحتك وكنت عتيد راودتك وإن طال الأمر أدبتك و لم أبالى لكى فليس في أدابكم أن تزكوا أزواجكم.

خرقت أسهم الكلمات أذنيها ومنها اقتضب حاجبيها ما هذا الجنون؟، تحدقه الأعين بغضب تزوم ككلب أجرب لا حول له حتى استطاعت أن تقتنص يدها من مخالبه وهى تتحسس معصم يدها المتألم وهى تقول صارخًة: ٤

- زوجى، من قال هذا يا أبتر؟

ابتسم بوجهه الباهت ثم نظر للغابة وهو يشاور بيده قائلاً:

- ملك الخفاء هو القائل.

ثم أكمل منهجهه وهى تنفث دخانها:

- شئتِ، أبيتى، ساعتلى، يومان فقط وستنظرى، إن بالرضا ملكًة وإن بالغصب جاريًة وفالنهاية ستركعى.

نفر عنها ورحل بعد درسه القاسى المُلقن إن لم يأتى بالرضا فبالقوة سيرتضى، ماذا تفعل مع ذلك الساحر؟ فإنه ليس بكاهن يرحم ويعلم التعاليم السماوية ويدرس العظات، إن ساكنه شيطانٍ متجبر.

***

خدعت الأم ابنتها بفقدانها الوعى لكن مريم تعى ما هى فيه جيدًا ومن ثم جاءها الموعد التى منه تهاب، موعد النوم والاسترخاء، وجاء العفريت الذى يسود الشباب والأيام.
لكن يوجد لديها نية مبيتة بالمواجهة والقرار هو وهم التعايش والمقاومة وهو البديل الأمثل للخضوع والاستسلام، جاء موعده لتحاوره بلا خوف بقلب قد جمد فهو منامها لا مماتها محرابها لا سوقها:

- لو وافقتك عاللى أنت عايزه هتدينى أيه فالمقابل؟

ضحك لاستسلامها ويائسها المبين فمهما كان فكرها فهو أميالٌ تفكر ثم بدأ اعتلاء طاولة المفاوضات ليجيبها صارحًا:

- أى ما تتمنيه هو مطاع ومجاب.

فرحت بإجابته كمن وجد مصباح علاء الدين وبدأت تملى كراسة شروطها:

- شرطى الوحيد أشوفك فى صورة حبيبى.

طالبته بشرط سنها المراهق الذي يدركه كل من مر بتلك المرحلة الهائمة فهى فترة يتذكرها الجميع ليضحك فهى سعادة البراءة الغامره، لاحق تغيره السحرى بعد تفوه أمرها فهم يمتازون بالتشكل السريع وبذلك أطاع ولم تتنظر لتسأله:

- طب ولو عايزة اشوفك فالحقيقة أعمل أيه؟

جاوبها مسرعًا كمن سرته أخبار منتظرة:

- بيت الخلاء وانظرى للمرأة وتزينى ومن الملابس اجردى وفى نفسك اهمسى وستنظرينى مقبلُ.

لون لغته أيضًا كمن يملك لغاتٍ جما وأجابها بفصاحة وبات منها لا يحتمل وبالمداعبة يبدأ لتبادله المحبة المحرمة التى زايفتها بفكرها، هجم ينتابها كيفما يحلو له وكيفما يشاء فمن يستطيع منع نفسه؟ اللحظات المحرمة فلم يعد فينا أو بيننا مثلٍ أعلى يقدس كيوسف الصديق الراحل.

أفاقت من نومها لتجد سريرها مُندى متذكرةً ما مضى وبليلة عرسها تفرحُ فلقاء الأحبة جمرةٍ لا يطفوها الهوى، تفحصت جسدها فلم يعد يجرح مثل سابق ولا يوجد أى أثار لورم أو ما شابه فأدركت حينها بأنه حلمٌ جميل مداعبُ والمطالب ستجاوب وباتت لعبة تلهو بها وتمرح والأوامر ستنفذ.

***

هرب عن أجواء السعادة السائدة متسارقًا خطواته يبحث عن تلك المتبصصة فهى صاحبة وجه جميل لابد أن يسكن الذاكرة ولا يرحل منها أبدًا فهو الأمر الذي يسجد له القلب ولا عصيان فيه.

أرهقه البحث اللافائد حتى رمق عبيدةً من خدمة المخبز فسألها وعيناه مازالت تبحث كردار الطريق العام:

- ألم تبصرى من كانت هنا؟

ضحكت بغنج متنعم وهى تلتوى بجسدها كغزال يشرد متباهى وتملس بيدها كتفه وهى تهمس وتفوح بعد أن لمع بريقها:

- ألا اعتلى بديلةً لهوى الجميل المتوج.

قبض على أكتافها لتنحنى جانبًا وإذ به يقارب أنفاسها لتغمض هى عيونها منتظرةً قبلة الحياة وبعد أن تمايلة بجسدها واستسلمت فإذ به يسلمها فريسة للأرض لترتضم متأوهه ليقهقه بصوت عال:

- ارحلى، فأنا أبحثُ مطلبى وجهٌ جديد منطوى.

تزفر بضيق غضبها بعد رفضه المجرح:

- أبحثُ حتى لا تهتدى.

فى ذات الأوان تبحث عن ذلك الكاهن الأصلع حاملةً كتيبها الصغير فى الوشاح الذى فيه دفن وبات هو مؤمن ملثم، خاضت أبواب المعبد تسأل وجاوبها أحد الكهنة بعدما أشار لها عن موضعه المفضل الذى يقيم فيه شعائره.

نهرٌ فيه ينظر وشجر به يتظلل وعصافير تحوم تزقزق ومجلسه متربعًا سرح فى ملكوت لا يدرك ويفهم إلا من خلاله.

قاطعت طقوس عبادته متنحنحًة وهو لا يسمع، كررت ندائها حتى يصل مسامعه فباء بفتح جفنيه فلاحقته باعتذارها وهو لها ناظر، نهض من مجلسه بعد قبول عذرها، تناوبت كتابها لتلقيه بين يديه وهى تقول:

- هذا وعدك يا أبى.

تغورغت عيناها وهالت الدموع تقطر لتذكرها بصباها مع الراحل، رتب على اكتافها وهو يهمهم:

- رحل عن الدنيا ليسكن القلب صغيرتى.

***

أنهى عمله الشاق بعد عناء يومين فأتم بناء منزلين متقاربين المسافة ولكن يختلفا المساحة، الأول يسع لفردين والثانى يتسع للجميع وذلك لهدف ما فى نفسه، غمر تلك المنازل بسلات الأطعمة والفواكه الطازجة وقوارير المياه التى لم يتدارك غيره مصدر كل ذلك المأوى وهذا بعد أن أتم فرش الأرض بخليط من أوراق الشجر والأزهار والورود ليتخذها الجمع متكأ، كل ذلك من أجل التأهب لليالي الملاح الخمرية.

تعجبت الحسناوات من سرعة ما أنجزه من بناء إنه لشابٍ ورع ليس ككهل مفزع، اختفى عن الانظار بعد أن أخبرهم بالمكوث فى المنزل الواسع والاستعداد للعرس الذى طال انتظاره وحان أوانه ولن يمنع عن إتمامه أى عارض كان مهما كلفه الأمر فهو ما طرد طيلة حياته من أجله فهو ما عاش من أجله ذليلٌ أيامٍ لا تنحصر، إنه الآن يا سادة فلا مستتر.

من داخل كهفه يُتمتم بعض تعاويذه فإنها طقوس الزفاف لديه فهو يمسك بكتابٍ مهترئ وهو يكحل عينه وينثر بعض زيوت البخور ويتمتم بعض الكلمات التى لا تفهم حتى هبت ريح باردة فإنه مرسال يجيب لنداءاته، آن وقت تبديله للعباءة ليصير منمقًا فجاءةً كشاب متهندل مستعدًا وللقاء الأحبة متيم، انصرف من موقعه متغنيًا مهيمن.

لا ناقة ولا جمل اليوم لهم سيعتلى سيعتلى،أتاهم المنزل والكل منه منحني في خجل متنعم فأردفوا تغيره الملاحظ المتغير، تبدل كشابٍ فى بداية عقده الزواجي يا لهذه التعويذة السحرية الرائعة التى يتمناها الجميع.

جلس أمامهم وهم يتبادلون النظرات فيما بينهم ثم بدا حديثه المثمر:

- ما فات رحل عنى ومات وكذلك عنكم أيضًا فالماضى قد رحل أما المستقبل هو بينى وبينكم وستصنعه أيدينا معًا، من الآن لقد وهبت حياتى لكم وأنتم ماثلتمونى إياها وسأكون لكم نعم العون ونعم النصير فما بالكم أريد الميثاق منكم.

استمتعت الآذان والصمت علن فلا حديثٍ يعلو بعد بيانه ثم ألاح مشاورًا بيده للأولى وهى هيرمن قائلاً:

- أنتِ أين ميثاقك؟

بأت فى قمة اضطرابها مهتزة الأركان والأنفس مخترقة جبال صمتها لتقول:

- أعاهدك.

ثم تبتلع ريقها لتكمل:

- أن أكون راعيَّة لشئونك.

الكل يتابع فى صمت، ألاح لسيبا دون أن ينطق بهمس فإن اللبيب بالإشارة يفهم:

- وأنا أعاهدك أن أكون نِعم الزوجة.

نظر للأخيرة التى تريد أن تفيض بنهر كلماتها المتسرعة فهى متلهفة لتلك اللحظات:

- أعاهدك أن أكون زوجتك وراعيتك ومخلصَة لك.

بطنَ سعادته بداخل جوفه بعد أن أوثق الفرائس وأنار القلب نورٌ ضاء الغرفة بشبابه ومن أمامه تتقمر الغزلان، الميثاق مدفن لا ينتهى إلا برحيل المتعهدِ.

نادى للأولى:

- هيا أقبلى.

نهضت كمبتله تائهه كقربان متقدم لا يدرى سبب لهذا ألم تسبقه من قبل وهو في الأصل معلم.

وقف أمام مسكنه الصغير لينحنى بظهره ويبسط يديه كمرحب قائلاً ومبدلاً لصرامته ظاهرًا ضعفه المكمن أمام أنثته:

- قصرك يناديكى تقدمى مولاتى.

خطت قدماها الغرفة لتبصر حينها غرفة كساها الورود وسريرٍ عال تفوح منه ريح الزهور فقد هيأ أجواء شاعرية لا مثيل لها وأكملها بقنديل درى مشتعل مكون من محار البحر معلقًا فى أحد الجوانب.

ثارت تلك الأجواء غرائزها المدفونة ليتم حديثه بكلمات معبرة:

- حبك من نظرةٍ أولى هاجمنى وأنا ضعيفٌ وفيكى أحتمى فاسمحى لى أن تتربعى عرش الملوك يا ملكتى.

أخرج من مغمدًا وردى تاج هو صانعه من المحار والعقيق والفيروز مشكل، تُقدِم ويقربها بعد أن أبصر بريق عينيها، واضعًا التاج فى محله ليزين به بستانها فإنها هدية العرس المعلن، قبلّ يدها لتفرز حياها ومالس شعرها وقد سحر رؤياها لتراه شابها المسبق فأغلقت جفناها فليفعل ما يبدله.

استطاع بهذا السحر أن يخرج منها الأنثى الصاخبة الثائرة وتبادلا عشقهما حتى تلونا فالتواء الأفاعى رباطٌ لا يفكه الصراخ الجائر، وما تراهم فقد كساهم الهوى والورود لهم ساتر بل مدفن ولكن على حرير منعم ماكثين فيه، حتى الصباح ظاهر ومن حبهم غائر.

أنتِ الأن ملكتى وأنا فى ملكك أحتمـــــى

عبدٌ طائع منكسر أرايت ذليلٍ منعمـــــى

العشق قتل وجدانى فى ميزان عدلك أرتمى

ذئبٌ أُدين بفعله وسجن الهوى قد غلبنى

لا ترحمى من قتل لثأر حكمك أعدُمـــــى

***

بدت الأوراق تخلعها من جذوعها المنتفضة فالأشجار تصرخ من تلك القوة الغاشمة والسماء تغضب فالإعصار قد حلا، الأجواء تبدلت من نسيم إلى ذعر بعد أن لامست يداه ذلك الكتاب .

بدأ يقلب أوراقه ليكشف عن أسراره وانطوت جلدته وهو يقرأ أولى كلماته لم يلتفت مباليًا للطقس الذى قد غلا لم يتوقع مطلقًابأن هذا سبب ما ألقى فى يديه.

تحدقت عيناه والوعى تدارك بأن هذه الكلمات تحمل فى طياتها سحرٌ عظيم قد أمر بدفنه سليمان النبي تحت عرشه فى سحق الأراضين وضعه خدمه من الجن بعد أن خروا له الطاعة والإطاعة فكيف خرج وظهر؟.

أغلق الكتاب مسرعًا لتعود الأجواء على ما كانت وحينها أدرك أنه يملك مُلكاً لا يملكه بشر فهو سرٌ من أسرار الزمن سيفعل بموجبه ما يحلو له سيخرج من العالم ما فى بواطنه فقد انتهت العصور الآن وبدأ عصره الأوحد فبالعلم تقوى الغرور، هامس فكره ضاحكًا:

- سأحكم العالم بتلك الأوراق.

أراد مكافأتها على هذا الكنز الثمين الذى لا يقدر مطلقًا فقال لها:

- تمنى علي مطلبك والمستحيل مجاب لك مهما كان مسعدك فأنا لكى وهابُ.

تعجبت من كلماته وفكرها قد شرد وتحدث شتاتها بصوتٍ خافت:

- أكل هذا مقابل ذاك.

قطعت حبل أفكارها متمنية لكن ترددها قد يغلب الأوقات:

- أتركنى للغد أفكر.

أجابها ضاحكًا:

- لكى ما شئتى ولا تخجلى ولكن شرط ألا تهمسى فهذا الكُتيب قد بات سرًا مدفونُ.

همَّ بالتالية سيبا ليخوض بمركبه أمواج بحرها بعد أن عبر شاطىء هيرمن بإعجاز غير متوقع، وعادت الأولى إلى مستقرها الأول بجانب ميلا المتشايطة.

دخلت سيبا بقاع سماءه الملمعة بالورود التى عادت كما كانت سابقًا فإن هناك من أعاد رتابها وبدأ يبوح بكلماته المسحورة حتى خرت ساجدة فى أحضانه ترتمى لم تستغرق وقتًا لرحيقه تحتمى وتتلو أسرارها فى معبده المسيرِ.

صرخات الشوق عالية تسمع آذان المنصت والهواء يردده لتستمع صداه فى السماء، نيران الغيرة تشعل فالملكة تروى ما بدر من ذاك الروخ المتجبر.

أفضى بشغفك حرره ولا تخجل فالعمر مهما طال سيرحل، لا تبخل على قلبك فتؤثرُ ويضيع منك المكمن، صارح بهواك العلنَ لتملك العشق وتزفرُ.

***

شاردة فى نظرات عيون ذاك الملك الشاب حتى أقنعتها مخيلاتها بأن تعتلى العرش بجانبه، هجر عنها فكرها بعيدًا لتغوص فى بئر منامها.

***

بات الحاوى يراقص أفاعيه بمزماره كيفما يحلو له ويغمصهم فى جرابه وقتما يشاء.

جاء دور الغجرية الثائرة لما بدر منه ميلا حتى استدرجها إلى شباكه الجائره ولم تكن مثلهم سهلة المنال فبدأت بإظهار غضبها المتدلل وهى تقول بضيق مستتر:

- لقد تركتنى مهملة ولم تفى بوعدك السابق وأنا أيضًا لن أفى بعهدى لك.

لم تمنعه كلماتها من الضحك ليجيبها بهدوء حتى لايعكر صفو أجواءه:

- كيف هذا جميلتى؟ إن تركتك الأخرة فهذا لأنك مميزة مدللة لقلبى، ستكمنى فى مضجعى يومان لتكونى أفضلهم فأنتِ المتوجة عليهم وبتِ بهذا حاكمه ووفيت أنا بوعدى فأين عهدك؟

ذابت كالثليج من كلماته الحكيمة واستسلمت يافعة المسام ولكن تزايدت من أفعالها لتكيد غيظ نساءه وتمكنت بصراخها وأصابت ما نوت.

مأوى التعاويذ هو الحل، مفتاح سحرى للمنزل وسنغزو منازلنا به لكن الكلم هو الأمثل، صارح نفسك بحبها وللهوى مرسى ومرسم، العقل يناجى حبه والقلب قد لان واتسم، السعادة تغزو حياته والشوق له ابتسم.

***

(٧)

نبتت الماضى

وليدة الأجيال والحصادِ حاضرُ قائمُ

جبال الكاوا – الجنوب الغربى (السودان)

الطبيعة النادرة اللاملوث لها من تلاوث سمعية أو بصرية كالمدينة حيث الهدوء المقبل من فم الطبيعة أى العادات والتقاليد البدائية فهم أناسٌ أخضعوا الطبيعة لإدارتها واستطاعوا تشكيلها وضافوها جمالاً لا بهتانًا أو جرفانًا، يسكن تلك الجبال بعض القبائل ولكل قبيلة عاداتها وتقاليدها المفرطة الجازمة، لكن قيدت بعض التقاليد والعادات العامة من قبل أوائل الزعماء.

- لا تتزاوج قبيلة من أخرى حفاظًا على نسلها ولعدم تخالط الأنساب بينهم فهذه القاعدة هى أولى الاتفاقات المبرمة.

- للقبيلة كاهن وهو رب الدعوة السماوية أى همزة الوصل بين الآله الحامى والقبيلة أى إذا أراد أحدهم دعاء ربه يخبر الكاهن به ليدعوا له، فى الاعتقاد بأن الآله له أعمال كثيرة مثل الأرض والسماء والبحار والجبال فلا داعى لإزعاجه فلتكون الدعوة من قبل الكاهن فقط.

- الكاهن الأكبر يرأس ثلاثى كهنة القبائل.

- اتخذت القبائل أشلاء الفراء لتغطية مناطق ومعالم التناسلية والذكورية كملابس لهم فهم أشباه عراه إلا التميز فهو لرئيس القبيلة.

- من حق المرأة الانفصال عن الزوج فى حالة واحدة فقط هى أن يكون الزوج عاقر وهم على قناعة تامة بأن المرأة لم تلد عاقرًا أبدًا، الاخصاب وإلقاء النبته وظيفة الرجل وهى تعد وظيفته الأساسية.

***

قبيلة الميلاكاوا

سُميت بهذا الاسم نسبةً إلى الأم ميلا ممخاروا من بعد رحيل الكاهن، نصبت الأم حاكمًا للقبيلة وعند وفاتها تنصب تاليها أى الأم الأكبر عمرًا.

تعمل تلك القبيلة فى حرفة الصيد وهى تسكن فى شرق تلك الجبال ويعد هذا الموقع استراتيجيا لها حيث تملك ثلثى الجزيرة أجمع وذلك لنبتتها الأولى وكانوا توأم لذلك السبب تتمتع بالبحر والهواء والخضرة.

تميز تلك القبيلة في خلع سنة من فك أبنائها ومن ضمن تقاليدها أيضًا الحفاظ على ختان الذكور لا الإناث حيث يربط الذكرى بجزع شجرة عتيد ثم يطرق من ضربة واحدة بمسن خشبي لينتهى الأمر بعد.

فى بلاغة الفتاة تحتفل بها القبيلة وتقوم هى باختيار شابين من أبناء القبيلة

يمارسون معها الحب فى منزلها أثناء إقامة الحفل ولا يفض أحدهم بكارتها وفى وقوع ذلك يسقط على الفاعل غضب القبيلة أجمع ولرد العقاب يقوم بوليمة لإطعام القبيلة كاملةً وهى تقوم من ورائه بإعداد مائدة لصديقاتها، ويشترط عليه زواجها قبل الإنجاب.

خطبة الزواج يقوم الشاب بعرض نفسه لأهلها مقدمًا صيدته كهدية للعروس ويخرج من المنزل لينتظر رأى الأهل والعروسة، إن ألقت الأم صيده أمام أقدامه وبثقت فى وجهه فهو مرفوض وإن خرجت الفتاة حاملةً صيده فهذا دليل الإيجاب والقبول، ولإتمام تلك الزيجة يختار الشاب مكان خلاء يقوم ببناءه ويعده ويتخذه مسكنًا لهما.

فى حالة غضب الزوجة أو الأم من بعلها فمن أبسط تصالحهما أن تختار أى شخص من الزوار ملازمًا لها فى سريرها ثلاث ليالى وحينها يطرد الزوج إلى منزل الضيف المختار ليتخذ مكانته أيضًا.

إذا مات الزوج يقوم بأعماله أخيه ويتزوج من زوجته وإذا كان العكس أى فقد الرجل زوجته يقوم أبيها بزواج زوج الفقيدة من أبنته الأخرى فإن لم يكن له بنات فبنات العمومة ومن ثم الخالات.

***

قبيلة السياكاوا

سُميت هذه القبيلة بهذا الاسم نسبًة إلى سيبا الزوجة الثانية لممخاروا.

تعمل رجال تلك القبيلة فى حرفة الصيد البرى من الغابة المقربة لهم حيث أنها تقع غرب الجبال كم أنهم تفننوا فى صناعة أدوات الصيد من أغصان وجزوع الأشجار.

احترفت نساء القبيلة النحت حيث بدأت سيبا نحت صنمٍ لراحلها ثم باشرت تعاليمها إلى الفتيات.

تتميز أبنائها بكسر واختلاع سنتان من الفك وذلك للترتيب المقرب لقلب ممخاروا.

لاختان البنات أو ذكور لزيادة الخصوبة وحب الشهوات.

فى حالة بلوغ الفتاة تختار ثلاثة من الشباب أمام الجمع ليمارسن معها الحب والمداعبة بافاضة بكارتها وفى حملها تختار منهم أبً لمولودها وتتم الزيجة بمشاركة ثلاثى الواقعة بناء المنزل معًا.

يتزوج الرجل من امرأته الأولى وفى حالة إنجابها المولود الأول تقوم باختيار زوجة أخرى يتزوجها الزوج لأنها لا تستطيع القيام بأعمال المنزل بمفردها وعند إتمام المولود الستة أشهر يعاودها زوجها حتى تنجب الزوجة الثانية فلا يتعدد زواجه ثلاثة إناث.

بنايات المساكن من الأشجار ولا علاقة لهم بالأحجار والمأكل من فواكة الغابة ومن حيواناتها.

على الكاهن أن يدعوا بنزول الأمطار فى فصل معين وفى حين عدم الاستجابة لدعائه يلقونه فى الغابة أعزل لتنهشه الحيوانات فلا فائدة منه.

قبيلة الهيراكاوا

سُميت بذلك الاسم نسبةً إلى هيرمن الأم.

اشتهرت هذه القبيلة بالفكر والحكمة والطب حتى لقبت بقبيلة الملوك والملكات.

تسكن هذه القبيلة شمال الجبال حيث تحدها شرقًا قبيلة الميلاكاوا وتحدها غربًا قبيلة السياكاوا.

اشتهرت بالمقايضة حيث تبادل العقاقير مقابل صيدة القبائل المجاورة وذلك من شئون رئيس القبيلة.

رفضت هذه القبيلة اختلاع أى من أسنانها.

تُختّن الفتيات فى هذه القبيلة وأيضًا يختّن الذكور حتى يحدوا من نسلهم.

تمكث الأنثى وتلازم منزل العائلة حتى يحين عرسها وتدرس فى منزلها الطب والعقاقير والمعيشة الزوجية.

تعدد الزوجات لا عدد له ولكن يحد الإنجاب إلى أربعة أطفال بحد أقصى.

ترمل الزوجة من بعد زوجها إذا كانت منجبة فى حالة العدم تتزوج بديلاً له ومن عائلته.

الكاهن الأمثل

هو ملجأ كهنة القبائل وهو صاحب الصلاحيات الحرة التامة فى كل القبائل فهو الأب الأوحد، كما له أحقية الزواج من القبائل أجمع كيفا يشاء نسبةً إلى الأب ممخاروا.

يقع اختياره تحت طقوس خاصة

حيث يرشح شاب من كل قبيلة ترى فيه الأم الأكبر الصلاحية لتلك المكانة السامية ثم يقيد الثلاثى فى أشجار الغابة حتى يلدغ أثنان والأخير هو الناجى الوحيد أى من يقع عليه الاختيار للمكوث فى البئر المقدس وذلك ليتم طقوس الاختبار الأكبر وهو التعهد مع الشيطان وذلك وسط أجواء الاحتفال والطبول، النهاية أما صُرع ولاقى حتفه أو نجح فى إتمام تلك المهمة.

لم ينجح ويعتلى شخصًا حتى الآن الوصول إلى تلك المكانة العالية، فلا وجود لممخاروا أخر.

***

أُفزعت بعد ملامستى لهذا الجسد الليِّن ناعم الملمس لتحدق عيناى واجثة فأنا أمكثُ وحدى فى هذا المنزل منذ زمن ولا يزورنى أحد، اقشعر جسدى وخوفى يسيطر على رؤيتى لكنى سأجبر عينى على تخطف الوميض حتى بدأت أجفانى الارتداد لأبصر جميلة الجميلات فيرجينيا فى مضجعى نائمة، زحفت خيفه كثعبان هارب من صائده أبحث عن جحر يأوينى حتى صادمنى الجدار ليتقلص جسدى المرتعد مكونًا جنينًا معظمِ تمنيت لو انشقت الأرض لابتلاعى لكن لا سبيل لى.

حاولت الاستقواء وإن اتحلى بالشجاعة لأتكأ على عظامى لكن هجوم الأسئلة فى ذهنى يغلبنى وتلك البصاصة فرحه ضاحكة تبصرنى بما أنا فيه لكن هذه هى شماتت الأعداء.

بدأ الناعم يتقلب ذات اليمين قليلاً ليظهر المفاتن والتضاريس الحريرية اللامعة لكن لا إثارة الآن فإنه الجنون كيف؟ ومن أين؟ هل أنا أحلمُ؟ فقد هرب منى دمى والخوف يعلو أصالى، بدأت الأنفاس تهدأ مع مرور بعض اللحظات حتى انتظمت دقات قلبى وأنا مازلت أبصر وأتأمل هذا الملاك النائم المستسلم فى زهو وصمت جميل، الرموش اضطربت فهناك ما يقلقها حتى حان وقت إزالة معصم العسل عن عيونها البحراويتان اللتان تغرق فى موجهما.

صُعقت كالمجذوب عندما اعتدلت إنها! كيف خرجت من أحلامى؟ كيف خرجت من كتاباتى؟ هل أنا مرضت أم هذه تخيلاتى؟

طرقت يداى رأسى وأنا أترججها بعنف حتى تستفيق عيناى مما أراه وتعود أدراجها لكن بصيرتى معاندة غير متلاشية وهى ما تزيد من مبلتى بابتسامتها الرقيقة لاستغراب أحوالى يا لجمال تلك الأنثى اليافعة.

شُل لسانى عند منطقه بعد ذلك الرعد المُكهرب ومنها أسهمتُ بصوتها المتنغم ببياتى صوتها لتسهل من رطوبة الأجواء:

- حبيبى ... قرب ... فى حد يخاف من مراته.

أحسستُ بجسدى يرتعد بعد أن غرق جسدى فى موجه عرق حارة باردة لا ساكن لها أهذا ما سمعته حقًا! هل اختلط الحلم بالواقع؟ أعى جيدًا ما بين الواقع والخيال شعرة هل أنا اجتزتها

لأمزج بينهم؟ ماذا يحدث فليضع غيرى مكانى! يا لجمال القدر.

أكملت بعبير كلماتها المحملة بالدفء والحنان التى تعالج النفس التعبة:

- ممكن تقرب وتهدأ وأنا هشرحلك كل حاجه.

رويدًا رويدًا جذبت أقدامى بقواها المغناطيسية، هدأ روعى بعد سريان مخدرها فى أوردتى فدوائها المعسول ينشط خمول القلب، ذهب جسدى محلقًا دون فكر بعد أن اشتممت رحيق حنانها الدافىء المكمن وقررت التعايش مع الأمر مهما كانت عواقبه لن أُضيع الجمال من يدى أيفضل أحدكم التيهة بعد اللقاء! العمر لحظة سأتخطفها وامتلكها.

***

فى ذروة المتعبد ممخاروا فى مشهد يُكرر ذاته هيردميس تقف تتأمل فى شرود ذلك النهر، بعد أن زالت الخجل من وجدانها فتحت فاهها لتُسمع صرير حلمها قائلة: ٤

- أتمنى أن اعتلى العرش بجوار المتوج.

وافقها ضاحكًا لحلم التمكن والشهرة الذى يتناسب مع هذا الجمال ووعدها بتحقيقه فى أقرب الأوقات.

***

زادت حيرة زويسر فى البحث عن تلك الغريبة التى شغلت قلبه حتى جاله فكرة البحث بين الطرقات بجواده ولم تسلم منه الأسواق يتبقى له أن ينادى عنها فإن العيون نحتت فى عقله منذ النظرة الأولى، مازالت نظراته تتفتش بين الأسر والأهالى.

***

أتخذ من مجلسه بجوار تلك الشجرة صومعته الخاصة لممارسة التجارب والتطبيقات فبدا باشعال بعض زيوته النفاثة فى ذلك الوقت المتاخر من الليل حتى لا تراه الأعين فانطلقت الأدخنة والروائح كيفما تشاء ثم أمسك بكتابه مقلبًا أوراقه بحثًا عن وعده، استوقف بحثه عند كلمات جلب الحبيب ثم بدأ فى إعداد المكتوب والطقوس الواجبة فرسم أرضًا بعصاه دائره ثم أرتش بعض الحبيبات البيضاء المشابهة للرمال الناعمة قارئًا بعض العبارات الغاشمة ثم نادى فى الخلاء إلهة الحب والهوى وغزته الإشارات والرياح ومنها انتفضت المياه من ركودها وهى تغور حتى ارتسمت بقطراتها ملكة البحار الحاكمة وما رأها خائفًا بل بقلبٍ جائر كأنه معتاد على هذا مع إنها أولى نداءاته، فصارعها طالبًا:

- أريد عصر قلب زويسر بهيردميس ولكى الطقوس العلا.

***

مرض قلب المتيم بحبها ولكن الدواء مجهل الطريق والحزن صارخ القلب، لاحظ الجميع تغير طباعه وتدهور أحواله فالضوء صار منه خافت لكن هناك من يعى طريق العلاج الرائع.

أتته خادمته السارية بطلبها نادية فساومته بفراشها حتى تبوح عن سرها فأجاب لها راجيًا متمنيًا اللقاء كأسير سيحرر فقام بنهش بركانها بمياهه الدافنه أخمد دخانه شغفها ولم يلتمس لصراخها فلاحقته ناهيه:

- أتت مع هيردميس الخادمة.

فألقاها متعاليًا بنصره متباهيًا وصيدته ملقيه كخرقةٍ بالية متعرية تغرق فى بئر عرقها، ياله من فارسًا جاد الجواد الجاثية.

حال الانتظار أحر من الجمر لكن لا بديل فكأس العشق قد غلبه حتى أفقده وعيه.

***

تكرر النداء ولكن فى ارتجاف يحومه لم يكن صافيًا كما سبق حتى صدى المكان بخوفه، انتفض فزعًا من مضجعه بعد أن اخترق الصوت جوفه ثم بدا مهرولاً متتبعًا النداء فهو صوت يعرفه جيدًا قريب من قلبه ويخشى عليه من الوبا.

فى لمحه مرعبة فى ذلك المكان الكثيف بشجيراته ترتعد وترتجف بعد أن حاومها طوفان الحيوانات الصرعة فبات الكل متأهب مطعمه فهو غذاء سهل المنال جاء بقدمه لم يسعوا إليه.

تتسابق أقدامه وعيونه تبحث عنها مسرعة يريد تلبية النداء يود انتشالها من الخوف الذى يسيطر على ندائها ولا يدركه حتى لو كلفه حياته حتى لمحها متسمرة تبحث عن منجى لها ومن حولها الوحوش تتأهب، صرخ بصوته عاليًا:

- ساجيتا.

رمقته وسمّعته نبضات قلبها لكنها مازالت غرقة لا تستطيع العوم والوصول له، التفت رؤوس الوحوش منذره له مستعدة الهجوم للطعم الآخر الذى جاء بدون عناء ولكن حدث العكس

لهم فإنه يستطيع المقاومة والمواجهة، شامخ لا مهاب لا منكسر، زاد من سرعته كسهم قاصد وفى يده عصاه التى شابهت الرمح مهاجمًا لهم كطرزان الأدغال فى بطولته العارمة ثم بدا الالتحام مع من قابله وبعصاه خطط أجسادهم ليرسم مخالب خاصة بحيوان الأنس وهالت دماؤهم تتناثر بين هنا وهناك وعلا صوت عوائهم فمازال أمام الهرب أسلم الحلول إما الاستسلام للموت فهو لن يفرط فى قطرة دماء واحدة من حبيبته أو أن يقترب منها هامسًا، وصل حبيبته بعد أن لقى مصرعه أحدهم فلم تكن مقاومةً تجدى بل باءت بالهزيمة المميتة، فى ظهره تحتمى ومازال يصارع بلا هوادة فإنه يمتلك قلب شجاع عنيد، وكانت مقاومته هذه ما تزيد الأمور بالنسبة لها سوءً فإن القلق ينهش جدران قلبها فبين كل ضربة وأخرى صرخة قلب لا تسمع وشهق توقف النبض لحظات إنه تقهقر الحب.

أدركت السباع وما شابههم صعوبة تلك الفريسة ليتخذوا خطواتهم للوراء بعد أن تخوفوا من شيطانه فهو لا يحارب بمفرده فلو كان بشريًا لما استطاع أن يحدث بهم ذلك فهم كُثر، التف لها حاضنًا إياها ليُهدأ من روعها وهو يملس على خصيلات شعرها الخائفه حتى تعود أنفاسها الأدراج وإذ به يهمس أذنيها بقلب محب:

- ماذا أتاكِ هنا ؟ ألم تهابى الغابة !

***

(٨)

الحب نبتة الوصول

يلتف الإنسان داخل الحلقات المغلقة وتعنته هو ما ينسيه النهاية الكونية

***

الرعد يخترق الآذان والسماء معلنَّة غضبها وثورها على غير المعتاد فلم تحدث هذه الأجواء منذ فترة بعيدة وعلى غير المعتاد لم يقدم هذا الكهل إحدى زوجاته مما ثار الشك والريبة فى نفوس الجميع، شغلت الحيرة الأذهان ومنها أتخذت الأمهات رفع شعائر الخيفة والرهبةواحتضان الأبناء والاحتماء من المجهول يا له من ليلٍ غاطس.

اخترق الأجواء صوت تأوه عالٍ مرةً علا كقرع السماء وهذا ما زاد البلاء وبات الجمع يرتجف من مسكنه يهابون صمت الليل الذي ساد الأرض.

عند حلول الصباح اجتمعت الزوجات والأبناء على أن يقوموا بالبحث عن ذلك الغائب لعل أحدهم يعثر عليه وغزت النداءات الأراضين والجبال والوديان:

- ممخاروا.

أردف الجمع أثناء عملية الفحص والسير جسد ملقى قرابة الشاطىء، هرول الكل إليه ليبصروا الفاجعة الفزع.

***

يسترق خطواته هذا المساء مخترقًا العادات والتقاليد المبرمة بين القبائل فهو صعب التقيد دائم التطلع وباحث عن الاختلاف، عبر غابته ليصل إلى بحر القبيلة المجاورة كذئب يهمس الأشجار بخطواته بحثًا عن صيده فى الخفى.

استطاع التسلل فى ذلك السكون المصمت ولم يبصره أحدهم ومنها وصل إلى مراده وهو الغطس فى تلك المياه المقمرة.

هى عادتها متمردة منذ نشأتها الأولى تهوى الشرود فى ذلك القمر تناجى النجوم تدعو السماء بعشق ذلك البحر المتقلب، تعشقه كسمكةٍ متلونة إن هاجرته لاقت حتفها فغاصت أقدامها الرمال حتى أصغت لأوامر تلك المياه الكالحة.

يجدف كطفلٍ طائش على عكس تلك القبيلة المتمكنة فى السباحة، أزعج غطسها وباعد سمكاتها التى تحاكيها سرًا فبات معكر صفوها وهى لا تبصر إلا نذير الشؤم

المقبل فتحسست سمكةً هاجمة جائرة أم صوت غضبٍ قادم يهرب منه الجميع حتى لا يلاقى مهلكه، تسحبت هاربة مثل أسماكها وكسباح ماهر حتى طفت على سطح المياه لتصطدم بضربات قدماه البطشة كغريق يبحث عن قشة النجاة فأوجثت منه رعبًا وخيفة حتى صدرت الصراخ عنوةً وقلبها متأكل منها، سمعها ليوقف فعله سريعًا ليهاجمها بكتم فمها حتى لا ينكشف أمره وينتبه الأهالى له، حدقته ليحاورها:

- إهدئى أرجوكى أنا لا خوف منى.

بعد لحظات وإيماءات من الخوف والانكار، رجت رأسها بين يديه كعلامة للايجاب وذلك بعد قليل من المقاومة، بصرته خليع السنتين فأدركت أنه غريب عن قومها (الميلاكاوا) وهو خائف أى يتركها ثم قال لها:

- هذا عهد منك بذلك.

زمت شفتيها غيظًا وهى تهز رأسها كى يتركها، انتزع عنها يده وسارعته مزمجرة تلتقط أنفاسها:

- ماذا تفعل يا أحمق أنت؟

توقفت فجاءةً كمن صعق لتهمس فى اندهاش:

- أنت !

سهمت فى شريط الذكريات للحظات معدودة بدت كسنين لتتذكر ما إن كانت طفلة ممكسة الفلوت الخشبى تعزف ألحانها المميزة وصحبتها ملتفة فى صمت والآذان لها مصغية وهاجمهم غريب متنكر فى رداء حيوانى ليلهو وهو يروع الصغار والكل منه يصرخ يهرول حتى ذاع الصياح وتم الإيقاع به وكان متلصص من القبيلة المجاورة مختلع السنتين، حينها قامت أمهات القبيلتين بمعاقبته أمام الميلاكاوا بكسر سيقانه حتى لا يجروء من بعده طفل بعد على افتعال تلك الوقائع، وكان جرم محرم عالجميع فعله من الأطفال.

وقف يلوح بيده أمام عينيها الشاردة ولكن لا حياة لمن تنادى

لتتيح له الفرصة بتأمل تلك الشابة الساهمة غجرية الملامح صاحبة الشعر الأسود الطويل والعيون البنية اللون صاحبة المحجر المتسع والأنف المسمارية والفم القرمزى حتى انسدل بصره لمنابع ثديها ليجد ضربةً مباغتة على وجهه حتى يوقف تأمله:

- أنتَ الطفل المتلصص.

ضاق من حاجبيه متعجبًا من قوة يدها التى صفعته وذاكرتها أيضًا فقد مر الكثير على ذلك ليومئ إيجابًا برأسه،وهى تكمل باندهاش من تكرار فعلته كمن لم يتعلم من سابق:

- ألا تخف كسر ساقيك.

فمدحها بذكاء الثعالب وهو يحتك بأنامله فروة رأسه فى حركة طفولية وزاد كعاشق:

- لم أخلق لأخف وإن كانت ستكسر هذه المرة من أجلك فأنا أوافق بذلك.

توردت وجنتاها فى خجل وبعد لاحقها بسؤاله:

- لكن من كُنتِ إياهن.

جاوبته بلغز مُحير بصوت مليء بالتمنع والدلل:

- فلتتذكر بمفردك وإن لم تتذكر لن أفعل ولك فرصَة واحدة وهى أن تذهب بعيدًا عنى حتى أرتدى ملابسى.

قطع حديثها نداء بعيد من مجهول:

- ساجيتا... ساجيتا.

خفضت من صوتها مهامسًة إياه بقلق على مصيره حتى لا يردفه أحد:

- اذهب .. اذهب .. أخى قادم.

لاحقها بنقيق الضفادع عابثًا:

- سأراك هنا بالغد.

تصطك أسنانها لا وقت لذلك وهى تزم شفتيها بصوت متقطع:

- لا .. لا .. اذهب.

لاحت بيدها لأخيها بعد أن بصرته قائلة بصوت عال:

- قادمة إليك.

تشرد فى سريرها فى صورة ذلك العنيد كمن يحدث حالة وفى الذات نفسه تضحك على صبيانته التى غلبتها فكرًا لتذهب إلى نومها وجناحها مرفرف.

***

طفى جمالها حزنًا على رحيل أمها فالنواح والعويل بات مصير لا اختيار فلم تستطع إمداد العون لها فلا منجى من الموت إلا ربك مهما كان وضعك، إن جاءت الساعة لن تستطيع تقديم أجلها ولا تأجيرها، لامفر من القدر، تمت الدفنة الملكية الغير لائقة بالمرة بصحبة بعض الخدم ولم تكن على شرف الأسر والممالك السابقة ولكن من ينجى المملكة من تلك اللعنة الحالكة.

حَزنتُ يــا همَ وقتك وقيعٌ فى شباكـــــك

صــيدتُ وكنت شارق ونسيت أنك هالك

غزاك من قبلِ إناسً والموت كان ملاحــق

في بحر الأمل مُحفرًا بأنامل رضيع ملتصقَ

السحق بات مصيره حتى يُبصر سلمـــــك

يشيب طوال عمره والآن صار مهـــــلك

ألغاز تحاصر اليتيمة هارودیس كيف ستواجه تلك اللعنة بعد رحيل أمها؟ بفردها؟ كيف تنادى رسول منامها؟ كيف تتعايش مع حيرة الملك زويسر؟

بقلب أبٍ ينفطر على صغيره، أراد إلمام شمل أسرته ومنها بدأ يجول أحلامها لايريدها أن تختلى بالعزلة والحزن والوحدة حتى جائها يقينًا متشكلاً على عرشه متوجُ.

***

سلكت طقوس ندائه حتى أتاها ناشطًا فاردًا ذراعيه عشيقٍ ملبى للهوا وهى عروسةٌ تطلب ولا تعلم ما يكمن لها من امتصاص عمرها وانعزالها عن عالمها، سوسٌ ينخر فى البذور:

- أريد مالاً كثيرًا.

ضحك لها ساخرًا من طلبها السّازج حتى طار محلقًا فى الفضاء العلن بعدما نال جماعها ليمرد بصوته:

- فى منامك مطلبك.

تبخر وجوده من حولها ومن إجابته لم تفهم كيف سيعطيها نقوداً فى المنام؟

***

تمنعت عن بحرها يومًا وتالية متثاقلة العناد بذاتها وهو مازال يأمل رؤياها فإنه يذهب إلى بحرها متسللاً فى تلك الأيام منتظر لقائها فقد نخره الشوق وهجمه العشق بجنوده، بدأ يأكل وجدانه لا يحتمل الانتظار ولايدرى ماذا يفعل.

إن انتظرت هل أساءت فلا تنتظر

لن يأتـوك وسيعتقدونك منتظـر

القلب يحـــن لـــمن دام وأتصل

والعين تعشق كـــــل منيع منعزل

اضغط زنادك وحرى قلب المنهزم

هـــم أنـاس بـــاعـــوك فأفتقـر

لمن يأم بقلب الصغير المنشطـــر

الأنثى تدرك جيدًا كيف تقع وليفها فى شباك الهوا؟

تعي جيدًا موعد إلقاء الطُعم وموعد الصيد فهى تمتلك جمال الطاووس وتعاليه وقلب الغزال وسرعته وذكاء الثعلب وصوت الكناريا.

بدأ شيطان الفكر يغزوه كى يبحث عنها فى القبيلة بأكملها حتى يجدها، باتت حياته باليه لا تعيه لا تساوى مقابل رؤية عينيها وابتسامة شفتيها حتى خفت بصوته:

- سأقوم بذلك غدًا.

***

بدأ بناء عالمه بفكره الخاص بعد أن بات الزوج المنعم المتسيد وتوالت الأيام والشهور ومواليده تُنشر فى الأرض عابثَة وهو يبصر حصاده وزروعه حتى بدأ يشرع قوانينه كيفما يحلو له ونسيجه يزداد حبال وخيوط ولزيادة نسله بدأ يناكح أولاده كل ملكه لا محرم له غيره وتكاثر حتى بات جموع وبدأت الأرض تضيق على أسره فبدأ يقسم الأرض لكل أمٍ وأولادها، بنى المنازل حتى اكتفى إن اكتفى ومرت السنون وحان حتفه وانقطاع أنفاسه ليرحل عن الدنيا بما يحمله من شرور.

***

تقربتُ منها كطفل يزحف إلى أمه وهى تداعبه وهى تبادلنى التقرب حتى لامسنى حريرها واقشعر له جسدى وهى تهمس:

- أحبك.

أحسستُ بانتفاض ساكن منى وكأنها جمرة تزداد لهيبًا دون وعى بعد كلمتها وبالتفاف الأفاعى أصبحتْ جالسة فوق قدماى المفرودتين بوضع منفرج الحرير المنسدل لتغطى بنعومتها الثائرة المنتفضة، أثار شعرها فضولى لألمسه ومنه أزيحه خلف ظهرها ويداى حول عنقها لأبصر بوادر فمها بقوة جذب خفيه، بدأت الأصابع تتشابك والشفاة تلعبُ وهناك باب يفتحُ ليردف صلبى

مدخله فإنه دفء يغمرنى وجسدى منه يطلبُ وصوت الأهات عاليا ليزيدُ من فحولتى، أمسك بذاك الحرير ابحث عن مطلبى ومزقته غاشمًا حتى لا يُعيقنى وهممتُ أمتص ثديها كطفل جائع يرضع وأهاتها لا تضعفنى بل تزيد قوتى وزلزال جسدها جعلنى أُبدل من موضعى لأتقلبها أسفلى ويدى تلتقط شعرها كلجامٍ أشده معتلى، تبادلنا الهوى والصراخ منى ارحم، أحسستُ بأنى داخلها وهى جزء لا يتجزء لا أريد تركه حتى وإن تركنى وهناك رعشة تنفضها مع فيضان منبعى وأمسكتها جاذبًا بقوةً مغناطيسية فلن ترحل وفجاءةً أصرخ وهى تهامسنى حبها وعشقها المنعم حتى قذف بركانى فى رحم جوف حبها ومنه هى مستمتعة ونارها قد خمدت وأنا الحاكم لمضجعى.

بات إحساس لم أشعره من قبل ولا أستطيع أن أعطيه وصفه المستحق هو ما فاق الجمال والخيال حقًا مزيج ساحر وبت عريس متغزل فى ليلة الزفاف، هدأ جسدى بعد تلك المبارزة ورأسها حانيةً فوق صدرى وغمرنى شعور النعاس وأنا ما سرت أقاوم له أريد أن أتطهر وإذ بالفكر يغزونى ويهجمنى:

- هل هذا حلال؟

انتفضت منها بعيدًا، إنه شعور الندم المؤلم، الشعور المتأخر بالخطأ، عربة الشرطة التى تأتى بعد القتل دائمًا، حدقتنى وصارحتنى فهى تعلم مكمنى:

- نعم حلال فأنا زوجتك وبيني وبينك ميثاق أأنت منه تهرب؟

سؤال لا أريده ثم نهضت لتقربنى بجسدها العارى، مسكت يدى وجذبتنى إلى بيت الخلاء ولكن هناك ريحًا ثلجية مباغتة تهجمنى أنستنى للحظات ملمس يدها الذي يعبث بجسدى بدون قيود أو أداب للطرق الخاصة.

لم أكترث لكلماتها المتغيرة فقليلاً تحدثنى بالفصحى وقليلاً تناجينى بالعامية، وفى بيت الخلاء ورعةً مهرةً تتدلعُ والمياه تزيد من بريقها تنظر لقطرات الندى لجسمانها تُداعب لتروى ظمأ العطش وتطيب من لوعة الحب المشتعلة لكنها ليست مؤثرة مع انهمار صرخات العلا وسأزيد حتى تشتكى اللقى ومن سينجيها من يدى.

ذهبت إلى مكتبى وزوجتى تصاحبنى ممسكةً فى يدها مشربى، لأول مرة فى عمرى أشعرُ بفخر سى السيد دون زفاف أو إقامة أفراح لا يشكر فيها أحدًا ومظاهر خداعة، أظنه جواز عجيب لكنه ممتع كم حببت هذا الشعور؟، رمقت ورقةً ملقاة على كتيبى التقطتها يدى لأبصرها مخطوط فيها ما يلى:

- أُبارك عُرسك بنيتى.

صدمتنى الكلمات فأحسست بالخداع والخيانة كيف تكون ابنته؟ ماذا يكون حالى؟ نظرت لها صارمًا شاحبًا مباليًا لكلماته خلف ظهرى وهى تشير متوسلةً راجيةً الهدوء وما قلته إلا:

- اشرحى.

بدأت متنهدة فى شريط تذكارى وهى تشرد متأثرةً ببداية ما تقول.

***

ما إن أشرقت الشمس بنورها إلا وأشتد الفارس لجامه متهجمًا قطرات الندى الراحلة لايبالى لمكانته فلا تعلو السلطة فوق القلب بل تخر تيجان الملوك بأسرها أمام تلك العيون فالقلب يشتعل وهى طفلة وستلبى النداء، اخترق الهواء حتى بصر نفسه أمام منزلها يطرق بابها كعابر سبيل لامأوى له فقد جنَّة العشق وحلق عقله فضاء.

استيقظت على طرقات الباب المبكرة هذه وتتسأل:

- من يزورنا باكرًا ؟

أقدمت لفتح الباب لمعرفة الطارق وهى تفترك أعينها غير مباليةً لصرير الباب الصادر من يدها وإذ به يقول:

- أسف لقدومى إليكم مبكرًا.

ما إن سمعت صوته إلا وحدقت عيناها والتصقت قدماها أرضًا كمن يقف على رأسه الطير، لاتسمع لاترى لاتتكلم حتى أومأ قائلاً:

- هل هذا منزل هيردميس؟

تسترجع ذاكرتها وهى تجيب برج رأسها، ثم قال بلهجة محقق:

- أين هى إذًا.

- نائمة.

واستنكرته عامدًة:

- من أنت؟ وما شأنك؟

ثارت شعلة غضبه لتجاهلها له:

- من أنت لتخاطبنى هكذا؟

تعجبت من أسلوبه لتصرخه قائلة:

- أسألك لتسألنى وفى منزلى عجبت لك يا هذا هيّا أرح...

قطعت المشاجرة بعد أن أيقظها الصراخ لتردفه وإذ بها تنحنى أمامه إجلالاً له لتقدم ولائها وتقول فى اندهاش:

- مولاى! عذرًا !

ألاحت يدها لتضع تلك الثائرة خلف ظهرها لتفسح الطريق له وأكملت بما بدا عليها من اضطراب:

- عذرًا مولاى فإنها غريبة عن المدينة ولا تعرف شىء عنها هى زائرة.

أغشت اضطرابها لإحلال الموقف بتلك الكلمات وهو يجيبها بسمة الملوك:

- لا عليكِ.

ثم لاحقها بإجابة ذكية حتى لا تسأل عيونهم ما لا تستطيع أفواههم تحدثه:

- لقد جئت لأطمئن عليك، لقد علمت بأخبار مرضك وأنتِ تعلمين مقربتك إلى القصر.

تعجبت من كلماته فهى لم تكن مريضة مطلقًا فمن أين أتى بتلك الأنباء إذًا فعبرت بسعادتها لسؤاله ثم أكمل هو بمكر الملوك:

- تحياتى للزائرة المتلصصة واليوم ترحابك قصرى.

ثم لاح بيده متنحيًا وهو يقول:

- أنا زويسر وأنتِ؟

فبادلته التحية ذاتها فى خجل:

- هيردميس.

- اسمٌ جميل لمليكته.

تورد وجهها قليلاً:

- اسمحوا لى بالانصراف.

انصرف وظلت الخالة تحدث نفسها كمن أصابه السفه والجنون:

- ما هذا؟ كيف وماذا؟ هذه...

ظل عقلها مشتت لا يستوعب المفاجأة وهناك الجميلة تصفف شعرها المنسدل فى دلال الملكات وهى تسأل لتزيد من الحيرة:

- هل اعتادت الملوك زيارة مرضاهم؟

عجزت الخالة عن الرد لكن المتسائلة تعى جيدًا ما يحدث، بات الشاب مغرم بها لا يستطيع أن يكمل حياته دونها.

قد أصاب الكاهن عمله.

(٩)

المرض ينهش الوجدان والدواء مكمن الوديان

فل يناجى كل حبيب حبيبه

***

أتاها منامها وهى فى انتظاره ليصطحبها من يدها كصغيرته لتدخل عالم الثرى وهو عالمه حتى بدت دومة الظلمات تحمل شعلةً وهو مرافق لها يدخلها غرفة كساها الظلام الدامس لتومض ظلمتها بتلك الشعلة لترى جدران مزخرفة منقوشة بكلماتٍ لا تفهمها ولم تستطع قراءتها وبها بعض الرسوم، وما إن خطّت قدمها حتى رأت أرضًا تمثالين منحوتين بالسواد وما شابه العصيان والميزان وبعض الكتب غريبة الأشكال والأحجام والريشة الهوائية وما يشابه النعال و العباءة وهناك قوارير معبئة لونها أحمر قاتم وأخرى أخضر لامع وكل هذا وهى تتفحصهم بيدها حتى أمسكت ما شابه القضيب الحجرى فأجزعت منه نافرةً إياه ليرتطم أرضا وفزعت من منامها، وجدت بقع زرقاء متناثرة على سطح جسدها أى تورم فإنه مرض أو ما شابه، من الممكن أن يكون عقاب لم تشعر به وهذا لا يعقل عدم إحساسها فنهضت مسرعَة لتبصر مرآة الحقيقة وإذ بها ترى بعض الشعيرات متطايرة من رأسها فهى اختلعت من بذورها، هالت تصرخ لتروى ما حدث لأمها.

لم تجد الأم حلاً لهذه الأوضاع سوى اللجوء إلى المسجد فقد عجز فكرها،

عند عودتها لم تخبر ابنتها أينما كانت حتى صدرت الابنة ضحكات هيستيرية عالية فهو ضجيج يُسمع المارة ومنها تحول صوتها كأن هناك من حضر من الخفى ليتلبس جسدها وبدأت تتحدث برعونة الرجال بصوتٍ أجش تقشعر منه الأبدان:

- ملعونة.. هموتك .. أنتِ وهو

نواح وصراخ وعويل الأم تستنجد بالجيران.. الابنة تصدر ضحكاتٍ مرعبة يترجج منها الجدران وإذ بها تسقط أرضًا ليعلن الخفى رحيله الآن.

***

على المعتاد أتخذ سبيله ليلاً حتى يبصر حورية بحره تداعب موجاها فغمرته السعادة العارمة ليزيل قناع الكآبة جانبًا الذى ارتداه ليالى فقد أعادت رؤيتها له الحياة ليتراجع عما نوى.

رمقته وهى فرحه ومبالية له حتى تهجم على موجاها بطشه مرةً أخرى لتسأله:

- ماذا أتى بك إلى هنا مرة أخرى أيها المتلصص؟

أجابها بدفء كلماته المحمل بالغضب المستتر:

- لست متلصص، ساجيتا.

قالت له بعدما تفوه اسمها كمن تريد معرفة اسمه:

- إذن من أنتَ يا لست متلصص؟

- أنا إمرام يا عازفة الفلوت.

فسارعته متعجبة:

- أالآن تذكرت!

أجابها بالغير متوقع:

- لا بل الآن أحببت، كدت أَجن لأبصر بريق عينيك كدت أتلفف القبيلة رأسًا على عقب وأشهر بصوت على اسمك الذى أصبح عالمى.

قاطع حديثه بإشارة من كفيه بأى يضم كفه لشابه نصف قلب ويفرد الكف الأخر أمامه وهى تعبيرًا عن الحب والحياة معًا:

- أرجوكِ لا تتركينى مرةً أخرى، في الأيام الماضية كدت أن أفقد عقلى لقد كرهت العالم دونك، فلترحمى عذاب قلبى.

يكاد قلبها أن يخرج من مسكنه فرحًا بعد فيضان كلماته الجائشة التى تتمناها أية فتاة كانت فهى ميثاق القلب، كلمات الحب هى نبض الحياة وميزان التعايش.

توقف عن إلقاء كلماته لحظات وهو ناظرًا فى عينيها فى انتظار ردها بعد أن عبّر عن مكنونه ثم أكمل راجيًا:

- أريدك أن تبادلينَّى إياه.

أخرج من أصبعه خاتم قد صنعه من الأخشاب هدية حبه، أمسك يدها التى فقدت الوعى بما يحدث من حولها لا تجد خدمة الآن لديها إلا النظر له ولجراءته واستماع كلماته الرنانة فقد استطاع تخدير قلبها حتى وضع الخاتم فى أحد أصابع يدها الملساء ثم قام بتقبيل يدها وقام بوضعها على صدره لتتحسس نبضه.

ظل الصمت والدهشة سيدا الوقت وإذ بعيناها تدمع لتتخطفه حاضنة إياه ليشعر بدفء حنانها وهى الإجابة المنتظرة له، الجمع يتمنى أن يجد شريكه ونصفه الأخر يظل باحثًا فى الأرجاء مشتتًا لا حول ولا قوة حتى يعثر على من يحتويه ليجد المأوى لقلبه والحانن له، الحب لا توصفه الكلمات إطلاقًا ولا يمكن أن توفيه حقه المستحق، الحب هو رباط الحياة أى يسرى مسرى الدم إن قلّ يومًا هش الجسد ومرض فاحذروه وأخلصوا له واعملوا على رعايته لينمو حتى لايموت.

استرجعت ذاكرتها قليلاً لتهمس فى أذنه لكى يستمع قلبه وعقله:

- كيف يكون هذا ؟ أنت من قبيل...

قاطعها واهمًا أحلامه بكلماته فقد أدرك ما تريد قوله:

- سأكون أنا ممخاروا الأب وأنتِ نساؤه.

علت ضحكتها لتحاوره بصوت ضاحك متقطع:

- أنتَ حالمُ حقًا كيف يحدث ذلك أيها الواهم؟

لم يبالى لكلماتها ليكمل حلمه بفلسفته الخاصة متنهدًا:

- أنه عمر واحد نتعايشه ولن أفنيه هباءً، سأكون أنا الحاكم الجديد فيه وستكونى أنتِ شريكتى، سأغير المنهج المتبع وسأفرض قوانينى الخاصة.

ملأت فمها بالمياه لتبثقها فى وجهه كنفخة الدلافين اللاعبة كى يستفيق من تلك الأوهام فلم يستطع أحد الوصول لتلك المكانة مطلقًا كيف سيفعلها ذلك الضفدع ؟

انتفض ليبادلها اللعب بالمياه حتى خطفهم جوف الليل فى الهوى وجائها المنادى المزعج مع تواعدهم بلقاء غد.

الحب محلق عاليًا لاتصيده الأيدى

والقلب له نابضـًا متلهفًا الصيـــدى

متى يروى ظمأه؟ من موج البحــــرِ

فتبصـــره العــينِ لــيوثـق الــعـهـدِ

قــلــبى يا حــب فــلا تُخجــل روحِ

***

طفقت البهجة والسرور جدران القصر وهو فى انتظار القادمة فهو حب من أول نظرة، حب العيون الذي يسابق القلب نعم الأخير الذى يعشق ما هو جميل، اتت الوردة من بستانها فلا يضاهيها جمال ولا يعلوها وهو متيم فرح بقدومها فبات يمليها حياة الملكية والقصور والترف والعادات والبروتوكول ولم يكن القصر كافيًا لضيافتها بل القلب هو المكان الوحيد الذى يحوز بضيافتها، بينما هناك الخدم يتهامسون يحسدون تلك المدللة التى تلتف حولها الأنظار فإنها تمتلك جمال ملائكى لابد أن تحسد من أجله، يتمنون أن يبادولنها الموضع حتى هال موعد البوح بما يحمله القلب فهى أول مرة يخفق قلبها اضطرابًا من تلك اللحظات:

- لا يرتد لى جفن منذ يومك الموعود.

تجيب الفرشاة:

- وعلى أن أصدق ما تقول.

فيغازلها برده:

- أسألى المدينة بأكملها فأنتِ أول من يعشقها زويسر ولتسألى قلبى ذاته.

تخجل باستفساره:

- كيف ذلك؟

التقط يدها غفلةً ليسكنها صدره وما منها إلا أن تبتسم وهو يسأل:

- هل ينبض؟

برق الذكاء عينيها لتجيبه وهى تلتفت من موضعها كطائر محلق فى السماء:

- كلامٍ معسول تخر له الفاتنات وأنا لست منهم.

أجابها مادحًا فهذا مطلبها إذن:

- بل أنتَ تتربعين عرشهم وأعاهدك بذلك.

تكرر اللقاء حتى اعتلى الأجواء فصارت أنشودة الغناء بين الخدم والراعية وبات اسمهما يتردد بين القيل والقال فأعلن أمر تمنيه من زواجها للأسرة الحاكمة فرُفض الأمر بجثامة وعنف فكان ممنوعًا بل مستحيلاً ومن المعجزات جواز الملك من راعيته

أو من الأغراب وهو مازال مُصرًا على موقفه لا يعتدل البته، تقبلت الأسرة لإرضاء شبابه فهو الملك المدلل والوريث الوحيد للعرش، أول حدث بهذا الشكل، يتزوج الحاكم من أغراب ليكسر بذلك القاعدة فهذا يا سادة هو سحر الحب والعشق والغرام بل الهوى، هو أشد وأخطر أنواع السحر هو الذى يذيب جبال القلب ويصيبه هادفًا جازمًا فى قممه، صار الحديث القائم (الملك الذى تزوج من حاشيته) قصد فغلب مقصده.

***

يخطو ممسكاً يديها مصاحب خطاها إلى بلدته أى قبيلته ليلاً كخفاش الخفى ليبصرها عالمه فهو منشأه وهنا ورع وتربى وبذلك أثر مكان التواعد وتوالت الأيام حتى حان موعد التكهن السنوى وتلتف إذاعة الأنباء فى كافة القبائل حتى يتم اصطفاء المرشحين فى طبول واحتفال الجميع فكل مرشح تحتفل به قبيلته كيفما تشاء ويحلو لها.

***

ضاقت الأمور شيئًا حتى لم يسطع شخصًا علاج تلك المتلبسة ولكن هذا التلبس قد غادرها أيام حتى تفهم رسالته وفى النهاية أدركت أن عليها التنقيب عن تلك المقبرة التى تقع أسفل منزلها، بعد أن باءت هى المتحكم فى الأجواء، أجبرت الأم بهذا الشأن فهناك عصابات متمكنة فى ذلك مختصين ويدركون مهامهم جيدًا ولديهم طاقم إعدادهم الخاص وتوصلت الأم عن طريق أحد الأقارب الذين يتمنون الغِناء الفاحش السريع الوصول إلى أحد تلك المافيا.

وجاء موعد المقابلة وإبرام الاتفاق والكشف عن باطن الأرض.

رجلٌ كبير السن طويل القامة مرتدى جلبابًا أسودًا مشقق الوجه والأيدى هيئته لا تبيح الخير يشبه رجال قريش فى الجاهلية لا يستريح قلبك لرؤيته بل بالعكس ينقبض ويلقب بالشيخ أنور.

أدركت مريم قدومه ولم يعلنها أحد بذلك، تزينت له كأنها على موعد ملاقاة زوجها على غير عادتها تمامًا، أضحت أوضاعها غريبة وتبث ريبة فى صدور الجميع فقد ذاع صيتها فى الآونة الأخيرة بعدما لقبها أحدهم بالدجالة الصغيرة.

دلفت إلى مجلسهم مبتسمة على غير العادة مرحبةً به بترحاب خاص له فقد جلست جواره والكل على دهشة وتعجب، بادلها ذات الشعور والابتسامة وجاء موعد الكشف ليمسك يدها ناظرًا لعينها يقلب كفيها يتحسسهما وذلك بعد إغلاق نهار الغرفة لتتبدل ويكسوها الظلام حتى اعتصب عليهما واقتتمت عيناه وكأنه تلبس هو الأخر وتبدل حاله ليبدو كشاب، بعد لحظات من الصمت استشعرت جسده ينتفض وأنفاسه تهدأ لتنظر لها بابتسامة عارمة وكأنها اسعد لحظات عمرها.

ترك يدها وأمر بإضاءة الغرفة ليبصر الجميع تشحب وجهه التام وإرهاقه حتى ظن الجميع صعوبة عمله الشاق، مستمتعة بما صار لا تبوح بشىء مما زاد الأمر دهشة ومنها قام أنور ليجول المنزل بخطواته وفجاءة تصلبت قدماه أمام غرفة مريم وإذ به يشير للجميع أن يعطيه أحدهم ورقة بيضاء وتم ذلك ثم دلف بيت الخلاء مصطحبًا ورقته وما إن أغلق الباب من ورائه حتى بدأت

الأصوات تعلو كمن يتعارك بالداخل والكل منزعج محدق مما يحدث ومرت الدقائق ليخرج إليهم متعرق الوجه منحنى الظهر زاده هرم على عمره فهناك من كان يقتص من عمره بالداخل حتى استدرج أنفاسه مرةً أخرى ليعود لهيئته الأولى فأمسك بتلك الورقة وألتقط كوبًا من الماء فبثها على الورقة لتظهر كلماتٍ قد كتبها أحدهم بحبر سرى لتظهر أمام الأعين:

- **مقبرة كاهن.**

مرت الأيام بعدما بصر الجميع تلك الكشف العجيب المخطوط بعشوائية وجاءت لحظات العمل والتنقيب بموجب أربعة أفراد يترأسهم ذلك الكهل غريب الأطوار ومنها استمر العمل ثلاثة ليالي متواصلة والكل على تحفز لمناله مجتهد للوصول، صار جوف يصل إلى خمسة أمتار وكان نداء الشيخ أنور لعماله:

- أوقفوا الشغل خلاص وصلنا.

استعجب العمال من كلماته فهم لم يصلوا إلى شيئًا سوى طين أكحل يحيط ذلك الحفر ولكنهم منفذين أوامره فهم جنوده المخلصة.

نادى الأم ليتحدث معها جانبًا هامسًا حتى لا يسمعهما أحد فهى أسرار خاصة بالعمل لابد أن لا يعلمها غيرهم:

- الرصد عايز مريم تنزل معايا تحت عشان يفتح باب المقبرة.

***

لم يكن العشق يعرفها ولا يعرف قلبها حتى يهجم حياتها

بجراءته ليكسر من سكونها، بدأ الحزن يخطو بقسوته ملامح وجهها ليغزو بهجتها حتى طفا جمالها مع كل يومٍ يتوالى بدونه بعد أن اعتادت كلماته ورؤيته والعبث بالدنيا معه بعد أن رسمت عالمها بجانب ذلك المشاكس تركها وحيدة تشكو الليل، الوحدة نار تأكل الوجدان وتمرضه بل تهلكه ليلقى حتفه، البعيد عن الرؤية يحترق من أجله القلب فالورد يذبل بدون رحيقه.

وقد قررت أن تخطو إليه مثلما نوى هو في السابق.

***

اخترقت مريم الحديث الجانبى قادمة من غرفتها وهى تعى ما يدور جيدًا لتصارعهم قائلة:

- أنا موافقه وجاهزة.

بينما هو سعيد وقلبه فرح بموافقتها الأم صرعة احتلها الرعب مما يحدث ومما سيحدث.

بدأ يدنس كرامة وطهارة الأرض بقذارة نفسه المسخة المحملة بسفليات الأفعال بعد أن أمر بظلمة القاع (الحفر) وليبتعد عنه الجميع، يهمس بأذنيها بشيطانه السحار فتلتقط هى يداه لتسارع تقبيله كمن كان ينتظر الظلام وهو يجنى ثماره ينهش فريسته بطريقته الشهوانية القذرة، يلتهم حتى يشبع ظمأه الذى لن يشبع أبدًا وهى طائعة يقودها تلبسها (الجن الساكن جسدها) فرح بأفعال هذا الكهل، جرد بمخالبه ردائها ليصير هو المتحكم وهى المحكوم والمهزوم ولكن النهاية هى علاقة تبادلية وغريزة شيطانية، بات هو توافق الشياطين من خلال هؤلاء البشر المسخ

حتى يستقبلهما الطين مقززًا بأجسادهم المتعرية كما ولدتهم أمهاتهم وهم ضاجعون مستنفرون الوقت بقوة شهوانية غريبة بل خارقة لا يمتلكها إنس قبلهما حتى اخترق صلبة مكفنها لتسترجع ذاكرتها التى فقدت لدقائق وجسدها الذى نُهب ليصرخ لسانها بعد أن صرخ جسدها مسبقًا لكن ما الفائدة لمن فقد، لن يستطيع الآن البكاء على ما فات، استشعرت بما يندثر منها لا إراديًا وإذ بها تنافره بيدها تحاول أن تركله بعيدًا.

أصاب الأم هلع من الصوت الذى طال أذنيها، تريد نجاة ابنتها لكن شيطان المال قد أصابها بالعمى وابنتها كانت سيدة القرار الأولى وإذ بها ترمق ذلك الفأر يخرج من جحره مُبتل يريد الهروب ملتقط بين يديه جلبابه ويستعدل من أحواله فإنه يريد النجاة والهرب من خوف سيقتله ولم يبوح بشىء إلا بإشارة لرجاله كعلامة المغادرة السريعة، قلبها ينبض بركانًا لا تسمع ولا ترى ابنتها لتسابق الريح مهرولة إلى تلك الفجوة تنادى باسمها وكانت الفاجعة.

بصرت وليدتها متعرية ماكثة بوضعية الجنين فى بطن أمه تحتضن أذرعها وأقدامها تحاصرها ترتعد تحاول الاختفاء تدعو الأرض بابتلاعها وبجوارها ملابسها التى رقعها بقعة من الدماء فهى المرافق الوحيد فى تلك الكبوة وكانت أيضًا تحمل الخسة لم تستطع أن تحميها من ذلك الملعون بل فى أول تلامس تركتها وحدها لتواجه مصيرها المر بمفردها.

الآن احتست فقدت حياتها وشبابها لتنكب أرضًا صرعة، فات أوان الندم.

***

سعادة تزين ليالى الهناء فمن يكون أسعد من الأحبة إذا نالوا الحب عن رضا حتى يُخبل عقلهم ليحول إلى عشق دون عناء، يتمتعون بالأيام كما يحلو لهم، لا يعكر صفوهم أحد ولن يجروء واقعٍ على ذلك فهى الآن الملكة وهو الملك.

***

تمرد على عالمه ومكمنه حتى سلك طريق آخر غير تلك العبودية التى طالت بذوره وعمره وسلك العالم الأسود عالم الخطيئة والإباحية والمحرمات فمطلبه عند إرادته لا يقف أمامه حائط ولا يهاب جاسر وشيطانه يهيىء العالم لنصبه ليحكمه بذلك الكتاب الذى سرقه أحد الجنةِ من القاع الذى قام بحفره خدم الجن أسفل عرش سليمان فى ظل حكمه، تمت السرقة بعد مماته وكان ينص على طقوس السحر الأسود والسيطرة الكاملة على ملوك الجن الغاطس لا الطائر.

عصى وتجبر على معلميه وكهنته حتى تم طرده من المعبد وانتشرت مفاسده فى الأجواء حتى صار هو الساحر الأول فى المدينة وعدو الخيرات ومفرق الأشقاء، يرد بظلمه حكم الضعفاء الأذلاء لا الأبرياء، صار كمن يحلم بتلك فنال وأذاع البساط بعد أن تمكن وجاءته الفرصة عبدة ذليلة منكسرة وقد استغلها جيدًا، لم يكن بالصالح مثل المزارع الذى تغلب على شرور نفسه.

***

يجول الإمام أبواب المساجد بحثًا عن علاج تلك الفتاة فالمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا، خطت قدماه مسجد الحسين بالقاهرة ليبصر شيخًا يبدو عليه الزهد متربعًا فى أحد الجوانب وذلك بعد أن دلته الإناس على موقعه.

رجلٌ فى بدايات عقده الخامس اشتعل رأسه شيبًا يزين جبهته صيغة المصلين متوسط البنيان خمرى اللون صاحب عينيان بنيتان وأنف مسمارى يزين وجهه شارب، ماكثًا بجلبابه الأبيض أرضًا ممسك فى يده اليمنى مسبحته الخاصة خشبية الصنع قاتمة اللون تتلمس أنامله فى حبيباتها فى صمت يحومه ذكر الله ، كاد وجهه يشع نورًا من الرضا والصفاء.

ردف إليه فى همه وحمدلله على إعطائه مقصده، ألقى السلام عليه وقد أجابه الجالس وهذا ما جعله يقطع تسبيح يديه لكن يده مستمرة ذكرها، جلس بجانبه يسرد تفاصيل تلك الفتاة المتلبسة حتى أومأ الشيخ الإيجاب بالذهاب إليها لعله يكون سبب فى شفائها.

***

(١٠)

لا تثير الشغف وتشعل فتيله

***

أدركت السباع وما شابههم صعوبة تلك الفريسة ليتخذوا خطواتهم للوراء بعد أن تخوفوا من شيطانه فهو لا يحارب بمفرده فلو كان بشريًا لما استطاع أن يحدث بهم ذلك فهم كُثر، التف لها حاضنًا إياها ليهدأ من روعها وهو يملس على خصيلات شعرها الخائفه حتى تعود أنفاسها الأدراج وإذ به يهمس أذنيها بقلب محب:

- ماذا أتاكى هنا؟ ألم تهابى الغابة!

أجابته بصوتٍ غلبه البكاء:

- لا أهاب الموت من أجلك، فأنا لا أهوى الحياة دونك.

اصطحبها فى يديه كصغيرته التى لم ينجبها مغادرًا، فقد غمرته السعادة من فعلها وكلماتها كى يسرد إنجازه لها أى ما توصل إليه فى تلك البئر وماذا يفعل من أجلها؟ صدمته بقولها:

- أرجوك لا تفعل ذلك من أجلى.

أجابها وأثار التعجب تعتلى ملامحه:

- كيف؟ ولا سبيل غير ذلك لى الآن!

لا إجابة لديها ظلت تفكر لحظات تبحث عن الرد ولابديل إلا حنان الكلمات المشعر بالقلق:

- أنا أهاب عليك حبيبى.

شرد بخياله يخاطرها بالمستقبل المشرق الذى يخطو خطاويه من الحكم والزيجة والأبناء، انتهك حرمة الليل ليعيدها إلى قبيلتها حتى لا يبصرهما أحد.

ذهب إلى الأم الحاكمة يسرد عليها ويملى مطالبه لكى يتم ما بدأ وما كان سيموت من أجله لتومئ بالموافقة دون رحمة دون قلب بل المطامع هى الأولى لها من حزن الأمهات على مطلبه، بالطبع سيطر الفرح على لسانها ورسمت خيالها المستحيل سيكون بيننا الكاهن الأمثل فأجابت مطالبة بذبح رضيعين وتمزيق غرابين وسارعته ليقيم معاهدته غير مبالية للضرر الذى صاب غيرها إنها طبيعة السلطة قتل النفوس.

***

يتجه إلى القصر متجبرًا مباليًا للورا فقد خطره الجنون أن يقدم إلى أبوابها فهى لم تعد بمفردها كسابق، الآن هى زوجة الملك والحاكمة بأمرها لم يعد الأمر بتلك السهولة المصورة.

تهامس الخدم خيفة عند رؤيته فمنهم من ارتعد فالكل يعلم بأمر ذلك الساحر فنادى عليهم بمطلبه المعبأ بالاستهزاء والاستنكار:

- أين الملكة هيردميس؟

سارعت إحدى الخدم إلى الملكة مترجلةً بعد سماع سؤاله، تعجبت من أمره وبدأ الخوف ينبضها والقلق ينهشها والوساوس تلعنها بصوت نعيق الشؤم:

- ماذا يريد هذا ؟ زمنٌ وارتحل.

لم تكفيها الوساوس ليأتيها هاتف قبيحًا لتجهر به:

- لو رآه زويسر.

سمعت همساتها الخادمة لتقاطع فكرها:

- ماذا سيدتى؟

التفت إليها بعد أن كانت ساهمة فى المجهول لتصرخ فجاءةً غاضبة مقتضبة الملامح:

- اذهبى إنى قادمة.

ما إن زعقت بتلك الكلمات إلا وطغاها الرعب والاضطراب تعرف بأنه لا ينذر بخير ذلك الرجل، بصر خطواتها الغزلة وهو يتذكر أولى خطواتها فى نفسه ، تحاول أن تدس قلقها ببراعة ذلك الرداء الملكى المزخرف الذى بدل بواسطته، نظر لها باسمًا بمكر قبيح وهو ينحنى ويقول:

- ملكتى.

تريد قتله حتى يدفن السر معه، قالت له فى غضبٍ مكتظ :

- ماذا أتاك هنا ؟

ليجيبها بفلسفته الخاصة:

- عجبتُ للحال من حالٍ إلى حال، بالأمس خطوتُ والآن تبدلتُ.

لتقاطعه هازئة:

- جئت لتسمعنى أشعارك.

وهو لها عابثًا بخطواته وهو يلتف ممسكًا عصاه واضعًا سواعده خلف ظهره بصوتٍ عاليًا:

- بل.

صمت ثوانى متبصصًا يمينًا ويسارًا ليكمل بصوتٍ خافت بالقرب أذنيها:

- أشتقتُ إليكى.

صدمت كمن صدمه الصاعق لتطلقه برصاص الكلمات:

- أجننت يا كاهن.

أجابها مسرعًا من الحديث ولا ينتظر سماعها:

- لم أعد.

لتكمل هى ما قطعه من الحديث:

- سمعت اسحارك ولكنى لم أسمع بنزواتك.

ضحكات ساخرة تكمن خبث الشياطين لتعلو من نبرة صوتها الغاضب مكملة:

- ماذا تريد؟ وإلا.....

واجهها غاضبًا:

- تهديدٌ حقًا.

تلاعب بمزمار صوته خافتًا إياه فجاءه ليراقص رباط الحديث:

- اعتلاء العرش لأصير أول ملكًا ساحرًا.

استشاط بركانها لينفجر الخامد لتصرخ عاليًا:

- يا حراس.

التف لهم محدجًا وهى تقول:

- اسقطوا عنه ثواره.

أشهر عصاه عاليًا وهو يتمتم ببعض الكلمات التعويذية فإنه يعود صبيًا ورع بل قائد جيشٍ عتيد قوى، وإذ بعصاه تبرق وميضًا يشبه الرعد والحراس مقبلين بإتجاهه وهو يوجه عصاه تجاههم ليرتطم الأول ويليه التالى ليلقى ما حل بصاحبه، يلتف لها قائلاً:

- ستبصرون عذابً لم يذقه أحد.

تباعد عن أنظارهم وكأنه يرتدى عباءة التخفى ولم يلحقه أحدٍ بضُر ولم يبصره أحدهم كيف يحدث ذلك؟، علم زويسر باقتحام قصره من ذلك المرتد الساحر بعد أن روت له ملكته وأن رأى أجساد الحراس الذين لقوا حتفهم، أمر قائد الجيوش بإحضاره حيًا أو ميتًا ومن ثم نادى بإحضار كبير الكهنة.

وبدأت حرب المملكة والمشعوذ.

حال غضب الملك جمرا ولكن دون جدوى حتى غشى الليل ولكن هناك من يُغلل للثأر لعزه ونصره ووجهه المنكسر.

الهواجس والكوابيس المفزعة تهاجم ذلك النائم وبدأ الجسمان يتصبب عرقًا بل ينتفض ليبصر أطيافً سوداء تحلق بالأجواء مسلطة للذعر من قبل ذلك المشعوز، يصول مفزعًا ويجول بجاهلية الدفاع لإنها

المرة الأولى التى يواجه عدوًا مثل ذاك، تلفت يمينًا ويسارًا بعد أن ارتجل من مضجعه بجانب مليكته ليهاجر وراء تلك الهالات السوداء، دلف الغرفة المجاورة ليجدهم وإذ به يستل سيفه من مغمده الذى سبق والتقطه وهو يغدو ليبارز ذلك الخصم المبهم ولكن هل سيؤثر ذلك النصل فى تلك الأطياف؟.

وهالأطياف تتشكل وتتكاتف كتجميعة البازل بيد طفلٍ يلهو على ذلك الجدار لتختلق تكوينًا جسديًا أسود يفوق حامل السيف طولاً وعرضًا ليبرز ظل الممخاروا ليبصره الملك فيشيط جنونه ليضرب بأم سيفه فى هذا الظل لكنه يضرب الرياح بلا جدوى وهى تنقسم لظلين متراقصين يتثامرا ويعاودا الالتصاق كسابق عهدهم، يضحك الظل ساخرًا مما يفعل ذلك الأبله المتعنت الذى يعبث بضرباته فإنه لا يعى تفاوت الفوارق بينهما ليزيد من العبث بالرياح والدوامات المتشكلة فإنه يتجمع ويتفرق ويتطاير وقتما يشاء كسرب من الخفاش هو قائده ومن ثم يعود ارتكازه مرةً أخرى، باءت على الأخر معالم الإنهاك والجهد من فشل الضربات، حالت أنفاسه متقطعة فإنها نهاية المعركة وخواتيمها، إذ بالظل يتشكل فجاءةً إلى أفعة ذات رأسين دميمة الهيئة شاهرة عن أنيابها ولسانها المفلق شقين وصوت فحيحها يخترق الجدران ليزيد من الطين بله ومن بعد ذلك تلاحق انقسامها إلى أفعتين فالأولى تستقل بجسدها فى الجانب الأيمن والأخرى تستقل عكسها.

مهتز الجسد واقفًا أمامهم مُصرع الجبين فى منتصف الغرفة مشاهدًا لما ورا وسيفه بات متدليًا فقد أنهى هجومه باكرًا وجاء دور الأخر، قفزت الأفاعى عاليًا ليخرج جسدها من الجدار ليعود إياه من ورائهم أصم

ليصبحا واقعًا ملموسًا يرى بكافة الأعين ومنها عين الملك المفجعة الذى صار هشًا خاويًا، إنه لا يستطيع الدفاع عن حاله الذى تهرتئ أمام خصمه وإذ بهما يخترقا جسده فى سباق مع لمح البصر ليُهزم سيفه ويعلن سقوطه أرضًا منحلاً عن قبضته، تبطش يداه جسده تبحث عن المخترقين.

ركعت الأقدام بجوار السيف الذى لقى مصرعه سابقًا وقد شحب الجسد وحدقت الأعين وفتح الفم أبواب الاستغاثة الصماء التى صارت بلا نفع بعدما عزل الصوت مسكنه وإذ بالرقبة يطفق جلدها فالأفاعى تسرى الآن بطريقها وتلتف حولها وهو لا حول إلا باختناق عنقه بمقابض يده لعله يحدث شىء، وفى لحظات أعلنوا الخروج من هذا الفم تاركين الجسد لصاحبه، يصدوا الصوت فى الأرجاء:

- لا عاصم اليوم منى.

كانت هى الختام والموت الزئام ونال الملك مصرعه بعد أن أرتمى جسده فور الرحيل للظلال حتى إن أذناه لم تسمع كلمات النهاية.

***

بدأ الصراخ يعلو فإن هناك من يستغيث ونيران تتصاعد لكن دون أن تحرق وتأكل وتلامس كعادتها فبدأت التمتمات تعلو للمناجاة والاستجابة لكن الكل يهاب النيران فلا داعى للاقتراب إذ لم تتحلى بالشجاعة، عجزت الإناس عن المساعدة إلا بأسهل الطرق السلبية وهى الاستنجاد برجال الإطفاء والانتظار لمشاهدة الأحداث.

***

فى ذاك البئر أتمّ طقوس النداء حتى أتاه سيده لإبرام العهود الشيطانية ليخرج من هذا السحق كاهن الجبال متزعم القبائل كمن توج بحكم بلاد الأفيال، نال ما يستحق فإنه قاوم وتخلى عن رغبات الحياة الدنيا ليعود حاكمًا لا محكومًا.

يخطو بأقدامه إلى الكهف المنغلق بأتربة السنين كهف الاسحار الذى شهد الذكريات والبدايات وذلك بعد أن أدله سيده على طرق التعاليم الحاكمة وكيفية إتمامها وتعاويذها.

***

شهوة الظلام بركانٍ لا يخمد ولا ينام وهناك قائد يأمرها يريد التهام اليابس، يهجم على فريسته المستلقية بلا رحمة ولا هوان فهو فيضان الانتقام بدأ يقبلها ويعلوها ويقلبها حتى احتست بمليكها ليزيد العشق نارًا حتى التصق الجسد فى السرير بعنفوان جارف أنه أمرًا غبيًا لم تشهده من قبل، شعرت بقوة جازفة منها فزعت عينيها لتبصر غطائها محلقًا عاليًا وكأنه محمل من قبل شيءٍ ما، أنفاس تتزايد والجسد ملتصق ونداء لا يخرج من الفم وصراخ لا يسمع والمقاومة لا تجدى ولا تنفع وما كانت إلا لحظات ليقذف الهوى منيه فى رحمها كالنار فى الجوف وإذ بصراخها يسمع فإن حواسها تعود إليها لتهتز له الممالك وعليها سقط الفراش وكأنه لم يرتفع مسبقًا أنها معادلة الجنون، كادت أن تجن مما مضى واستطاعت أن تنهض من موضعها بعد أن اشعلت الخادمات إنارة المشاعل لتتلفت العيون فى الأرجاء بحثًا عن الملك التى لم تبصره بجانبها، هرولا الكل بحثًا عن مصدر الصراخ ولكن هى قد شغل فكرها زويسر ولكن وجدته إحدى الخدم ملقيًا يقبل بدماءه الأرض وظل العويل والنواح هو الحاكم الجديد.

***

(١١)

نهاية الشىء هى نبتة أخر

احذر اللعنة

***

بدأت تسرد نشأتها قائلة:

أنا نبتة الملوك فأبى الملك زويسر وأمى الملكة هيردميس ذلك ما علمته حتى مطلع وفاتها.

اقتضبت حاجبى من كلماتها ولكننى لم أقاطعها لتكمل:

لقد روت لى أمى أحداث وفاة الملك الغامضه وما صار لها أيضًا فى تلك الليلة الغاطسة وأكملت بحملها من ذلك الهاجس الليلى الذى طال عامًا كاملاً فإنه حدث الجلل وعلى آثره أصبحت الملكة المنبوذة من قبل البعض صاحبة الشؤوم على البلاد نعم تلك البلاد التى أسود غطائها ونالها العجب فكلما اعتلى عرش أبى ملك لحقته المنية بأسباب مجهولة حتى بدأ الكل الفرار من البلدة ذاتها ولقبها الجوار بأرض اللعنة، نعم صارت عروشٌ خاويه وقصورٌ سكنتها العناكب والحشرات ومنازل سكنتها الأتربة والغبار ومع كل ذلك أصرت أمى وقليل من الأسر المكوث فى تلك الأراضين، الكل أصبح سيد نفسه لم يعد وجود لسيد أو مسود فالكل سواسية الوباء، أنبت مع بعض الأطفال ولكن دومًا ما كنت أواجه صعوبات فى التعامل معهم فهى طبيعة البشر الشماتة والنبذ فظلوا يهابونى وينفروا حتى نشأت بلا صديق ولا قريب وتملكتنى العزلة القاتله أنا وأمى فكنت أشعر كما لو أننى لست منهم، الوحدة سطرت وسطوت على خضرة قلبى.

***

لم تلامس عينيه رحيق الحياة ولا أشعة الشمس فقد سكن الظلام لمدة أيام من أجل حلمه ليصير هو رفيق الشيطان ولكن كيف لذاك القلب الذى طمس بالنيران والأسحار أن ينبض من أجل فتاة؟ كيف يجمع القلب بين تنافرين؟

لم أرى سلطة تشع حبًا بل دائمًا ما تشع تجبرًا وقهرًا.

***

استرجعت كلماتها فى ذهنى سريعًا بتمعن وهى تتحدث لاستقطعها هاجمًا:

- أنتِ.

بادلتنى المقاطعة أيضًا بالإجابة السريعة كمن يعني ما يشغل ذهني وأخطارُ فكرى

- نعم أنا أنتمى لِبني جنسك وأيضًا بنى العالم الأخر.

وأكملت شرود سردها بدموعٍ متبخره فكلما رأيت دمعةً تتساقط تبخرت وتصاعدت كأبخرة مشروبى الساخن المفضل وكانت نبتة الريح فى قلبى:

- بدأت تخطرنى أحلامٌ غريبة وأناسٌ غريبة في ذاك الوقت فكنت أكلم الحيوانات في منامى وألهو وألعبُ معهم وكنت أحدث أمى بما أرى ولكنها لم تثمر حتي بدأت أتجول هذا العالم من تلك البوابة

فكلما أردت أمرًا ذهبتُ إلى مضجعى سريعًا فكان هو نافذتى وباتت هي البوابة السحرية الخاصة بى، أصبح لى أصدقائى أحبهم ويبادلونى ذلك وكانت الرفقة والأُنسة وتطور الأمر فبدأت أراهم في الواقع كما أجالسك الأن ولكن لا يراهم، غيرى كما أنت، فقد وعيت ذلك بعد أن التفتت لى أمى إحدى المرات وأنا أجالس أحدهم فأدركت عدم رؤيتها وتمكنى من ذلك فجمعت بين العالمين وصرت وليدتهم لكن ما كان هناك هذا الشىء يعكر صفوينا مثلما حدث قبل وفاة أمى بلحظاتٍ مع تلك الخادمة المتحولة وفى النهاية علمت مصدره من أمى قبيل غفلتها الأخيرة فاشعلت نيران الانتقام في جوفى سانتقم ممن حرمنى السعادة وملّكني لليُتم والعزلة وجعلني منبوذة لدى الجميع، مكروهة، فقدنى الثقة حتى لنفسى، كان هذا هو شرطى الوحيد لسيدي أى والدى سيد الظلام لكي ارتحل إلى عالمه وأتنازلُ عن العالم الأخر وحقًا كان ذلك سهل المنال كلمحِ البصر.

في ريحٍ بصرتُ ذلك القاتل أمامى تلمس أقدامه الرمال وعلمت أنباء زوجاته وأنجاله، قررتُ أنا أن أذقه من كأسه هو وأجياله وأن يتذوق الجمع نيرانى، جلس سيدي على عرشه أعلى الجبال ينظرنى ويتأمل بابتسامته العارمة بعد أن منحنى قوةً خارقه ومنها بدأت التف حول ذلك الكهل من هنا وهناك وهو يحاول التخلص مني بما يملك من تعاويذ ولكنه باء بالفشل وبدأ الخوف يلعب لعبته بالتسلل كالمرض فى الشريان، ابتسم لما أرى وأتأمله في صمت وأزعق لأحاوره بعد الصمت القاتل:

- أنتَ مُتيمى أنتَ، أنتَ قاتل أمى سيدتك أيها الأغبر الملعون فقد جاء حتفك فى مخطوطة يدى.

صُرع حقًا عند سماعه كلماتى ورأيت صورة أمى فى عينيه وهى تستجير من الموت ولم يرحمها، ارتجف قلبى حزنًا عليها وكاد يخرج من ساكنه لينتقم فرأيت فيه حب الدنيا وملذاتها وهيأ له وهمه النجاة منى لكن هيهات أنه هدفى ولن يهرب منى، هرول إلى الماء بعد أن احتل عروقه الخوف ولن تجيرك منى والفشل يبشره بموته، فجاءةً صرخت بغضب:

- لأحرق الأرض بك أنه يومك.

غبيٌ تملكه الخوف يحاول الفرار منى.

أكملت غير مباليَة لوجودى باحساس متعصب يرسم بالدماء:

شعرتُ أنني تملكت أمر التخالط أى التحول كيفما أشاء وذلك في حالة الغضب الصارم، بصرت نفسى طائرًا أسود كاحل منبطح الأوصاف صاحب عين صقرية ومخالب شيطانية لكني لا أملك أجنحة لترفرف مثل الطيور وبأتُ منطلقة أسابق الزمن وأرى سيدي الذي نهض يشاهد لحظات النهاية فإنه يأمر بذلك فقد ملل الانتظار وأطلق فى العنان للصيد، بسرعة الريح العاتية التي لا تلاحقها الرمال وهذا الجبان يزيد من عويله وصراخه أمامى ويستغيث بمن يساعده و ينجيه منى، لحظات فيها اخترقت جوفه كالسهم الذى فلت من قوسه لأمزق أحشائه من جسدى الطائر لتنفجر الدماء من محاولة واحدة وكدت أمزقه إربًا لولا ارتدادى لكينونتى ليسقط عنى العالم الثانى ويسقط هو أمامى جيفة بالية لا ناطق له فبثقت على وجهه إنه ملعون غره سحره وأنا أقول:

- لم يعصمك منى أحد.

وكانت هى أخر كلماتى فى ذلك العهد الأدمى، وكنت أنا الريح والنار لذلك المحروق، اصطحبنى سيدى لعالمى الجديد الذى فيه تبدلت أحوالى، أصبحت ملكة مدللة تسكن عرشها وهؤلاء هم أعوانى وأصدقائى.

***

بدأت المياه كالمدفع تُصب من القبل على البنيان كأنهارٍ قاصدة ولكن النيران معادية معاندة، إذا صوبت المياه يمينًا ترحلت النيران يسارًا والعكس ودخل قلب الجميع الشك والريبة فى الأمر وعند حلول الفجر اختفت النيران كأن لم تكن وما رحلت إلا عند سماع صوت الأذان فى الأرجاء وحينها أدرك الجميع بأنه أمرٌ شيطاني.

استطاع أحد المنقذين أصحاب ذلك الغطاء الرأسى كسر مخاوفه ليتسلل ويدخل المنزل ليجد بئرًا تتصاعد منه الأدخنة وبجانبه أم تحتضن ابنتها والاثنان فاقدى الوعى مرتميان أرضًا لا ناطق لهما فإنهم على موعد مع الموت، كان استبساله قاتل نجح فى إخراجهما للإسعافات الأولية وفجاءةً بعد الخروج سمع صوت عجيب فإن الأرض تتشقق لتعلن غضبها وهى تثور واهتزت غفلةً كزلزالٍ غاشم ليندثر البناء رأسًا على عقب ليصير تلاً من البلايا والأشلاء.

***

تفقد الكهف أثناء خلوته السحرية بحثًا عن غوامض سالفة وكانت فقد لامست يداه كتابٌ مطمس بالأتربة وما إن قام بتنظيفه إلا وهبت العواصف سريعًا فإنه نادى ملوك الجان ليغلقه سريعًا لإدراكه ما وقع بين يديه، أنه امتلاك الدنيا واتمام الصفقة الشيطانية فكان نعم ابن الأوز وقد شمل خيوط اللغز المتفرقة.

***

يا لسرعة الحضور لقد رأيت جدار جراءتى ينهار أمامى عند رؤيتهم، هذا أفعى وذاك ذئب وهى على ترحاب بهم كمن يرحب بأهله، فرحه مع العلم بتمتعها بحس الدهاء فقد لاحظت ما طرأ لى من رهبة فقد رحلت عنهم بعيدًا، إن كنت تعاملت مع الجن فأنا كيف سأتعامل مع حيوانات مثل ذاك، هى نشبة الخلاف بيننا حيث حاولت التغلب والتمركز فى موضعى لأعود أدراج نفسى فباءت بجزءٍ من الفشل لأحاورها مرتعدًا مهزوز الصوت:

- أنا لا استطيع إنكار حبى الشديد لكى فأننى أريدك من بنى عالمى وليس من هذا العالم فكلٌ لعالمه وما يملك.

اقتضب وجهها وأنا أكمل بمنطقيتى والذى أراه:

- كيف أواجهك بأهلى وأصدقائى ومعارفى؟ كيف سيتعايشون مع أمرك؟ فلتصيرى أنتِ موقعهم !

جاوبتنى بوجه قد تختطف ووجه قد شُحِّب:

- لن أكون أنا فى عالمك بل أنت من ستأتينى عالمى.

صرعت حقًا من مردودها فلم تتركنى أتحدث لتضع سبابتها الناعمة على شفتى لأصمت، فالتصقت شفتاى عنوًة عنى وأحسست بدوار يصيب رأسى ووميضٌ يلاشى رؤيتى فإنها لحظات مفارقة الروح للجسد وإذ بى أراها تمسك يدى فى قصرٍ فارِهُ البناء شاسع، الأزهار والستائر الحريرية تملأ أركانه وهى كالأم ترشد صغيرها بتعلم المشى لتحفظ ذاكرته المنزل ولحظات فيها انهت ما بدت لأعود أدراجى بل تكد تكون همسات لأبصر حالى جالسًا كما كنت وهى تزيح عن سبابتها الرقيقة التى تقبل شفتي، أهذا هو حلم اليقظة أم ماذا؟ ارتججت رأسى لأعى ما حدث فإنها تبتسم لما أنا فيه كوردة البستان، عجبًا لأمرك:

- أرأيت قصرك.

التصق لسانى برهةً ليلامس حلقى، فقدت حاسة النطق لثوانى، فإن رحيلى لعالمها أرعدنى، جاء قرار رفضى التام لاضعها أمام طلبى وعليها الاختيار فهى صاحبة القرار.

وقفت زافرةٌ نافرة عن بركان غضبها وحين بصرت فى عينها بصرت إعصار لو مسنى لأهلكنى، لا أعى ما أفعل الآن! فقد لجم جسدى والتصق فى موضعه وأنهار العرق تتسللنى وطفح وجهى بالدماء فقد تملك الأدرينالين منى وهى تُصيحنى بصوت وجل تهتز له الجدران كمن نفذ خزائن صبره:

- لا بديل لك عندى

ولن تسعيك الأرض هربًا وغدًا سألاقيك

ولا تنسى عهدك

ولا تخالفه فتندم.

لم أبصرها بعد هذا الوعيد وكأن قرار الأرض طُبق لابتلاعها أو صرحت الجدران على طمسها.

***

أزال الستار عن حاله ليخرج من صومعته مجوفًا بعض القرارات الحاسمة فى مبطونة، وما إن انتشر النبأ بين العشائر فاستعدوا ليوم الاحتفال وتنصيب الكاهن الأعظم وهو يومٌ تجتمع فيه القبائل أجمع من رضيعهم إلى شيوخهم، ويعد هذا الاحتفال الفريد من نوعه منذ رحيل ممخاروا الأكبر.

***

ظللت مشتت الفكر فإن على رأسى الطير وتلك اللوامة تلاحقنى فلا بال لها عندى فالآن لا تدركنى إلا أحاسيس الهرب والفرار من تلك المخاوف التى احاطتنى، لم أجد ما أفعله إلا النوم الذى ذهبت له كطفل صغيرٌ يحتمى من كلمات أمه المحشوة بالتوعيد مثل ما قيل لنا سيأكلك العفريت، علمت حقًا معناها الآن فاختبأتُ أسفل غطائى ليحيط بجميع أطرافى وقد كفّنتُ جسدى به جيدًا حتى يطمئن قلبى وأعلم جيدًا بأنه ساتر الزيف لكن لا بأس به سأحاول أن أقنعُ نفسى بأنه جدار فولاذي، هى تتبصص بشماتة الأعداء لكن لا فكر لها عندى وبدأ اليأس يراودنى قليلاً حتى هدأ ورحل حينها خاطرى وذهبت بروحى إلى عالم المنام والأحلام.

***

احتشدت الجموع على إيقاعات القروع والطبول وكل قبيلًة ترتص على حدى والكل فى انتظار هدفٌ واحد ألا وهو رؤية المعجزات واللامعقول من ذلك المهد المنتظر الأعظم، باتت العيون كالصقور تتبصص وكالخفافيش تحلق لترى ما أبعد من الحدود فقد اختلفت التقاليد والعادات بينهم، تسيطر عليهم مخاوف التعارف فلم يعتادوا ذلك أو يتلامسوه حتى نشبت بعض التلاعبات والمحاولات لاكتشاف تلك الكائنات بعضها البعض الذين أجتمعوا على أرض واحدة ومن عرقٍ واحد ولغة واحدة ولا يعرفون بعضهم البعض إنه ظلم الدساتير وتفريق المجتمعات والأراضى ووضع القيود والحدود ليجعلوها أقفاصٍ متحاوطة، وعلى أثر تلك المحاولات السابقة كاد ينشب الضجر وإذ بها دقات وأنغام طبول المنتظر التى تهتز الأرضون مع خطوات أقدامه إلى رعان الجبل فى رداءه الثانوى الذى لم يعتاده مطلقًا وهى عباءة التكهن المفرضة بحكم المنصب الجديد بجانب مسكة لتلك العصاة الغريبة الصنع التى تشابه العاج، العيون تحدق كعدسات المراقبة وتسيد الصمت حاكمًا فى تلك اللحظات فالجمع ينظر ذلك الشاب الذى توصل إلى ما لم يتوصله غيره فإنه معجزة العشائر التى سيسطرها الشاهدون جميعًا فى قصصهم وقصص تاليهم.

هناك من لم يرتد لها جفن ولم تطرف لها عين مطلقًا تختبىء بين الحشود فالعشق ينهش فى الوجدان، بدأ هو خطابه كزعيم الأمة واثق الخطا:

- أيها الجموع بقدر هذا حق المقتدر إن كان عهدًا رحل فلن يحكم المرتحل وهذه بوادر المنتظر.

عـلا الصـمت والغضـب أوجـه أمهـات القبائـل الـتى تناولـت بفطرتهـا مـا يعى مبكرًا.

اعتلـت ملامـح التعجـب وجههـا بعـد سـماع تلـك الكلمـات الرنانـة حقًـا قد اكتسب التكهن.

بدأ يتمتم ما لم يفهم ثم لاح بعصاه سماءً فإذ بالسماء تقطر أمطارها فبدأت التهليلات والهتافات وهو يكمل برنامجه ليكرر ما فعل مرَّة أخرى كى تصمت لحالها تلك الأمطار كأن لم تكن وأطاعت وجفت مؤتمرة معه ليقف الكل فى ذهولٍ تام، أشار بعصاه للأرض فإذ بالرمال صائغة تعتصر لتشكل دوامة الرياح المتعصبة الصارمة حتى عاودها بإشارته لتعود ساكنها وتهدأ ومنها أكن له الجميع السجود لتمجيد إمكانيات ذلك المحدث وإذ به يزعق بهم لينهضوا بصوتٍ تهتز له الجبال وترتج له رجًا:

- اعوا جيدًا، لم اتكهن من أجلكم ولن يحكمنى راحلٌ أبدًا أبدًا مثلكم، كلنا نبتة أب وأم، أمهاتكم نبتة لحم ودمٍ، وأنا تكهنت من أجلها، نعم من أجل من سكنت فؤادى وقلبى، تكهنت من أجل حبها وحدودكم الخاطئة، أردت كسر حدودكم وأفكاركم بحبى لها.

بدأت الهمهمات والأصوات تعلو وإيحاءات العصيان تطفو حتى هال بعضهم السباب لما يقول لكن فى الجوف لم يبوحوا بلسانهم وزاعت البلبلة والجدل وإذ به يصرخ لتصغو الآذان عنوَّة عنهم:

- ما رأيكم إلا ما أرى لو أردتها سفارًا لجعلتها دكًا دكًا ولكن بينكم قلبى وحبى التي صارعتُ من أجلها، لم تقدموا لى بمعروفٍ قط فالكل يعرف ما فعله جيدًا، فلنتقارب البته لا قوانين جهلاء تسيطر مطلقًا فالكل يملك عقل يفكر به ارفعوا رؤوسكم للسماء فلستم بالخنازير، استسلموا لما ينبض فى جوفكم داخل أجسادكم وأنصتوا له لعلكم تدركون، فقد قاومت الموت من أجل ذلك

وضع إصبعه على قلبه وهو يكمل:

- وعاهدت الظلام من أجل هذا.

خطت الدموع السبل على وجنتيها وهى ترى ولا تصدق ما تسمع، مستمتعة لكنها دموع الفرح بصفاء قلبه التى ظنته تعكر من ذلك التكهن، كاد قلبها يختلع من قواعد شريانها.

- لا أهابكم حتى من أجلها وأذكركم بالنشأة الأولى كانت وليدة الحب، فالقبائل للجميع والجميع للقبائل وهو حكمكم ومن يرتد عنى فهو البحر لكم.

زام البحر كمن يفتح فكيه لابتلاع كل من سولت له نفسه:

- هذه الأفعال لا تلوذ لى، هى أرض واحدة وسميتها بالكاوا، تمتلك قلب واحد لينبض جسدها فإن مرض عضو فيها بكى الجسد ولا يمتلك جسد ثلاثة قلوب.. فمن اليوم لا أمر ولا معلوم .. إننا أخوة .. ماذا أنتم قائلون؟

أطلق الشعب صحوات وتهليلات الموافقة والفرح وهم يحتضنون بعضهم البعض فإنه بداية سطرٍ جديد يُولد بينما يبدو على الثلاثة عجائز علامات الغضب والرفض التام، لحظات مرت وفيها عاود السكوت منازله وعادت النظرات والمسامع إليه:

- لا أريد العصا، لا أريد المناصب، فإننى أريدها، هى نبض تلك الوادى وروح تلك الأراضين.

أظهر من داخل تلك العباءة الكتاب الموعود ليرفعه عاليًا بعد أن أسقط عنه عصاه أرضًا فإذ بالرياح تنبذر وإذ به يستجمع قواه التى يستمدها من لا وعى ويرنح يداه للوراء ليقذف بالكتاب هوآء بقوة مائة رجل ليواجه مصرعه بفرده، العيون تتابع ما يحلق جوًا والفكر يتساءل عنه ليصعق بهم كمن ينادى الطيور:

- أريدها .. ساجيتا.

بدا اسمها غريب الذاع للوهلة الأولى، رجت الهمسات المكان لا أحد يفهم ما يدور .. أنه يوم المفاجأت، تحدق العيون فى حركة دائرية الزوايا، الكل ينتظر ما سيحدث! فى نفس الآن خرجت من جوف الصفوف فتاة متمردة الجمال تبدو في ملامحها شقاوة الغزلان تخطو بخطواتٍ متعسرة الحياء والحشد يفتح لها طريق العنان للوصول إليه بارتصافه جانبين وهى تعرج له توادة.

تصدعت عيون عشيرتها لما يحدث من تطاول وصكت أنيابهم لكنه حكم الأقوى، من أراد ملاقاة حتفه فليتقدم للنزال إن تجرأ قلبه ولا أظن هناك من يقوى على تلك المواجهة، إنها المختارة.

عند وقوفها أمامه نزل على ركبتيه بعد انحناءه طالبًا زواجها:

- لن ترحلى عنى يومًا حبيبتى فبكى أحيا وبين ذراعيك أموت.

نهض وهو ملتقط يداها ليشهرها عاليًا والسعادة تعلو وجوههم ومن ورائه تزُم كلل منهم شفاهها، الجمع يصيح بصوت تشقق له الأرض رحبًا واختلفت الهتافات بين:

- إمرام .. ساجيتا.

- كاوا .. كاوا.

ارتبط مصيرهما عنوَة لإثبات القوانين وتطبيقا للملأ، فقد أثر خطابه قلوب القبائل فكانت دموع البعض تنذرف أنهارًا والآخر تبدو عليه السعادة كأنه أول مرة يتذوقها فى عمره، حُفرت قصة العشاق فى ذاكرة الجميع حتى إن البعض لقبه برب الحب فصار نهج يتبع تتوارثه الأجيال وتتدارس منه فيما بينهم فهو الحب الذى حكم الجبال لتخضع بأمره وبدل مقاليدها الجافية لتنبت أزهارًا و ورودًا، أنت أين حفرت بطولة هواك؟ وما كانت تنازلاتك من أجلها؟

كان ذاك البدائى الأحمق فى زمن لم يصله ما طالك من تكنولوجيا فأين أنت بذلك؟ الحب هو الذى يقود العوالم والكره نارٌ يجنيها فاجر، لكنه تناسى العهد فإن كان هو ناقضه فهناك من لم ينقضه وبالطبع له رأىٌ آخر فلكل فعل رد.

***

طقسٌ بارد يخور جسدى ويعكر صفو منامى، بدأت الرعشات تغمرنى واجتازت حتى وصلت لأسنانى لتسمع اصطكاكها كما يحلو لها فأحسست بأننى داخل مكيف خاص وأراه قادم لحسابى ليزيد من المبلة طينًا فقد كنت تناسيته حقًا ولم أكن له أبالى، يدنو ويقترب ما هذا؟ لقد تخلل جسمانى بنظراته النيرانية هل هذا اختبار جديد؟ أم أنه جاء لينتقم لفتاته التى غيرت من أحلامى! فلأصارعه بكلماتى فإن السابق هو الغالب وهذا ما سمعته من بعض الأمثال المغمورة:

- ماذا تريد منى؟ ماذا أتاك؟

يجيبنى بتلاهى يثير استفزازى:

- وما أريد أكثر مما توصلت إليه يا عبد؟

أجابنى بسؤالٍ أخر ليزيد من أعبائى لكنه وقت الخلاص الذى حان:

- إن كنت عبدًا فلربي الـ ....

ساخرًا ضاحكًا ويصمت برهة ليقذف بقطار الكلمات:

- لقد تملكت منك فأصبحت عبدًا عندى مثل سابقيك وقريبًا ستخر ساجدًا من عشقها الذى نخرك ويبليك فهى الطعم الذى أتى بصائده وهى الشباك الناعمة التى ذبت فى حنانها، إن القلوب إذا هوت فقد عمت وأطاعت وإذا العهود نقضت لا تلومن إلا نفسك.

غلبتنى الرجفة لأصمت وأسمعه:

- فلتقرأ التاريخ يا أبله فأنا الملعون الرجيم، لا امهر منى، أنا من صنعت التاريخ بحرفتى ومن غزوى وقد تطبعتم بطبعى، التمرد

أنا صاحب نظرية العصيان الأولى

أنا مكمن القتل والنزال

أنا الطمع والجشع والأموال

أنا الجاريات .. الشهوات

أنا الشر والكبر والطوفان

أنا الاحتلال والاختلال والأفعال

أنا الدماء في الأنهار

أنا من أهوى الظالم والزانى والجوعان

أنا الأرض

صمت قليلاً ليكمل:

أحقًا أنا الملعون، لقد نسيت النزواتِ.

هدأ بوتر كلماته وذلك بخفض صوته يالها من حبكة إبليسية:

جعلت ظلامى لكم ساترًا

وتعاويذى لكم دربًا حاميًا

فقدموا القرابين فبابِ ملبيًا

- بعد لعنتى قد لعنتكم بفروضى تسعون بجهدكم من أجل الرضا عنكم فكيف تحبون ربكم وتواجهونى؟

هل رأى منكم كلبًا يتمرد على مربيه؟ فأنتم مثل الكلاب تعوى وتلهث فى يدى حتى أرضا عنكم بعطائى، فليواجهنى أيكم من استطاع !

تسمر جسمانى بعد قذائف كلماته فغضبى يناجينى وجسدى لا يقوى أمامه فأنا خطّاء وهو يدعى الربوبية بكلماته البذيئة هذه، حقًا أنا ضعيف لا أستطيع المواجهة بل زاد ضعفى أميال من ذلك الحب الملعون الذى جعله يتملك منى أكثر فأكثر، جسدى يرتعش دقيقة، إنه صرير السرير الذي يحوينى كدتُ أستفق لكنى عدت مرَّة أخرى، هذه المرة صارمًا واقفًا لا أعانى أمامه فطوفان الشجاعة أظنه أصابنى سأواجهه:

- أنا ربى الله ولا أهابك، أنتَ عبدٌ مثلى لله ولن تستطيع أن تضرنى بشىء إلا ما كتبه الله فأنت أضعف مما هيّئتهُ لك نفسك وكبرك.

ضحكاته المستهزئة القاطعة:

- لازمك الإيمان غفوَة حقًا، هكذا أنتم تعرفونه وتعصوه لإرضائى وطاعتى يااللمهزلة والسخرية.

- إن كنا عصاة فاللهم اجعلنا من التائبين المستغفرين ولكن لم نكن علماء مستكبرين متطاولين، يا طاووس الملائكة.

ثار غضبه من سخريتى له فبات غضبه جمرًا، اقتتمت عيناه واخترق رأسه قرنان ونفر جسده أشواكًا مدببة ليجوفنى الرعب لأترجج بسريرى وصوتى ينادى الاستغاثة أريد الهرب ليوقظنى ورأسى تتخبط فاليمين قليلاً واليسار كثيرًا ولسانى ينطق ومازال الضباب يطمس رؤيتى:

- لا .. لا .. الله .. الله.

انتفضت مرتعدًا وبصرت حالى لأتكأ على يدى وأنا مدرك ما واجهنى جيدًا يا له من كابوس مخيف وكعادة الجميع عندما يرى كابوسًا يتنفس الصعداء ويقول:

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

حقًا نهشنى انتقامه فما زال دمى هاربًا وجسدى باردًا وأنا أكرر الاستعاذة منه، ترجلت إلى بيت الخلاء لأضع رأسى أسفل ذلك الصنبور الذى سكن فى حوضى الرخامى المفضل لتنهمر شلالات الماء على رأسى لعلى أنسى ذلك الملعون بما قاله، غمرت رأسى بما يكفيها لعام قادم وللأسف ذهنى شاردًا فيما رحل عنى فإن لها ذكرى بداخلى قبل أن تلامس ذكراها أرجاء شقتى، لم تستطع قطرات الماء هذه أن تسكرنى حتى أنساها ولكننى أكافح ذاتى وأعلم بأنها لن تنسى.

هدأ روعى بعض الشىء لأقوم بما أعتدته يوميًا ولكن هذه المرة بدونها وهى أول مرة منذ فترة أبصر نفسى وحيدًا ورفيقى الوحيد هو الآن مشروبى المحبذ الذى أعدته وآعتددته وبالطبع سيرافقنى تلك الجريدة اليومية القابعة أمام بوابتى.

ارتشفت رشفَة لاتذوق سكرى أقليلاً أم زاد عن الماضى، بدأت فى القراءة ليسحبنى ذهنى الذى أبا وشرد فى ملكوت العصيان فإن عينى تومض أضواءً كثيرة وهمية لتشعرنى بوجودها وعدم رحيلها عنى لكن هناك رأىٌ آخر لعقلى الصارم ليثور غاشمًا ببعض التساؤلات:

- هل يعقل أن تحب من أهل الثرى ؟

- هل تُماثلك نفس الحب؟

- كيف تحاسبها إن أخطأت؟ كيف تصير أم لأبنائك؟

طفح قلبى بكيله غاضبًا متحججًا ليستوقفه رافضًا واقعيته وهو ينزف بما أصابه من مرض، والحب مرض لا يُداوى ففيه احتار العلماء أجمع، حقًا لا يستطيع أن يُغفل عشقها فهى حبه الأول الذى نُحت على جداره الرقيق الذى انصهر من جلموده إلى عقيق فمهما حاولت أعلى سيظل ينبض لرؤيتها حتى تُوكل وجدانه ويصبح هشًا، غياب الحبيب كغياب اللون عن الصورة فتصبح باهتة الروح والرؤية فالحب لا يفقدنا الحياة إنما يفقدنا رحيق الحياة.

لم أكن أصدق يومًا بأن للحب مرارة والآن غيرت من نظريتى بعد أن أذقتها وجف منها حلقى.

كيف أتلاشاها ؟ ونبضي يذكرنى دائمًا ولا ينساها

أُغمض عينى فأراها فينادى جسدى بحِماها

ذكرياتٍ تُوميض حياتى ولا مهرب إللاها

أُعذب ومن يشعر ودوائي هو رؤياها

حقًا هوت البعد فلن أعيش بسِواها

سأرحل عن عالمنا لأنسانى وأنساها

شعرتُ بأنها حرب ضارية نشبت وتوغلت بداخلى وجاء وقت الانقطاع فمخيلتى تراودنى وهى جالسَة جوارى أم أنا أتمنى ذلك فهو شعورٌ غريب معبء بالحزن والكآبة وهو افتقارك لشخص عزيز على قلبك قريبٌ منك، أحاول التكبر فلن استسلم لما يحدث لى وسأبالى كل ذاك واقرأ.

صالت عيناى تقلب ما هو جديد من أخبار ما بين الفن والجريمة والرياضة وأخبار العالم حتى جذبنى ذاك الخبر المكتوب بفونت عرفى منتصف الصفحة وهذا عنوانه

لعنة كاهنوتى المن تصيب العالم

وأسفل منه صورة ضوئية ملونه لمجموعة من أوانى ذهبية وبعض التوابيت المرصعة المتراصة أرضًا وبعض الأشكال الحجرية وفيما بينهم مجموعة من العصى مزخرف بعضهم برأس الأفاعى كما يوجد ميزان يبدو شكله عجيب وجلباب غلبة القدم ويكاد يكون مهترئ.

فى الهامش الأيسر كتب أيضًا بفونت عريض

هناك لعنات مذكورة ومعترف بها فى الحضارات القديمة، لعنات تصنف بما وراء الطبيعة ومازال العلم حائرًا لا يجد التفسير.

وبات الموضوع:

لعنة أخرى بعثت من جديد هذا ما تصدر أخبار الصحف العالمية بعد اكتشاف مقبرة الكاهن **مم** والذى عثر عليها مطلع الشهر الجارى بالقرب من محافظة القاهرة، حيث تداولت أبرز المواقع والصحف ما قيل أنه لعنة ما قد تخرج من تابوته الذهبى ستؤدى إلى ظلام العالم لمائة عام مقبلة، وهو الأمر الذى وصفه الدكتور مصطفى وزيرى الأمين العام للمجلس الأعلى للآثار بأنه محض هُراء ولا يمت للواقع بصله وأتم حديثه بوصف

محتويات المقبرة وأكد بكونها اكتشاف أثرى عظيم حيث أنه الكاهن الأول الذى يمثل عهدٍ ذهبى وذلك بناء على المحتويات والمقتنيات الذهبية التى عثر عليها من أدوات تكهن وموازين وكتب مختصة بالسحر والعصى المستخدمة، من الغريب وجود أربعة من التوابيت خشبية مطعمة بالزخارف والنقوش تكسوهم يختص أحدهم بالكاهن والتوابيت الأخرى خاصة بزوجاته وهذا هو الحدث الجلل الفريد من نوعه وهو ما عرفناه مما سبق بحرمانية تعدد الزوجات عند الكهنة المصريين وكان الأدهش هو وجود التوابيت فارغة بدون المومياوات الخاصة بكل منهم وهذا ما برره أحد أفراد البعثة المكتشفة بأنه تم ذلك بقصد السرقة وهذا ما لا يعقل سرقة المومياء وترك المقتنيات كاملة وفى الآن ذاته انتاب بعض الأفراد القلق العارم والقشعريرة من تلك العبارات التحذيرية المنقوشة على الجدران.

" ألعن كل من يحاول أن يزعج راحتى الأبدية وسأضعه فى ميزانى لتتذوقه نيرانى"

وجارى البحث عن المومياوات المفقودة.

إلا أن السخرية أصبحت محط العلماء إلا القليل منهم الذى لم يبالى بُناءً على ما حدث على مدار القرن الماضى وأعقب ذلك بوفاة الأثريين فى حوادث غامضة كما ذكرت العديد من الكتب.

فلنبحر معًا فى أشهر اللعنات التى اشتهرت بها الحضارات القديمة والتى وصفها البعض بأنها حالات من طاقة الغضب الهائلة والشعور بالظلم والعجز عن دفع ذلك الظلم بعيدًا، وهى الحالة

التى قال عنها العلماء أنها مصاحبة الكثير من القدرات الخارقة عند الإنسان مثل القدرة على التأثير فى الشخصيات والأشياء بدون وساطة مادية، قد تفعل اللعنة فعلها بطريقة غير مفهومة عبر الزمان، أما بالنسبة لأعرق الحضارات التى عرفها الإنسان وهى حضارة المصريين القدماء (الفراعنة) فلم تكن لعناتها نابعة عد حقد أو دناءة بل كانت وسيلة دفاعية عن مقتنياتهم فى حياتهم وفى موتهم ففى الاعتقاد القديم الجسد والروح متلازمان وأن الجسد يجب ألا يبلى لكى لا تفنى الروح لهذا السبب أحاطوا مراقدهم ومدافنهم بمختلف عبارات للعن والتوعيد من المصير المظلم لكل من تسول له نفسه الاقتراب من الموتى.

لعنة الفراعنة

أشهر لعنات القدماء التى يتداولها التاريخ ظهرت بعد اكتشاف مقبرة الملك توت عنخ أمون والذى فوجىء مكتشفها هيوارد كارتر بعبارة.

" سيذبح الموت بجناحيه كل من يجروء على إزعاج الفرعون "

تستقبله على باب المقبرة، وبالفعل مات معظم الذين اقتحموا المقبرة ميتة غامضة بعد وقت قصير من اكتشافها بطرق غريبة لم يلق لها تفسير.

من الحكايات التى توارد ذكرها أيضًا ما أثير حول انتحار الأثرى زكريا غنيم – أمين جبانة سقارة الذى اكتشف هرم الملك "سخم- خت"، وتبدأ أحداث الواقعه عندما وصل غنيم لحُجرة دفن الملك وارتفع ضوء المصباح وشاهد فى منتصف الغرفة تابوتًا ضخمًا

من الألباستر فتحرك إليه وكان أول سؤال دار بذهنه-على حد تعبيره هل هذا التابوت سليم لم يمس؟ وعد فتح الأثريين ببطء وقف الجميع مندهشًا فى انتظار المفاجأة، كان فى الاعتقاد أن التابوت يحتضن جثمان الملك مما سيجعله أهم اكتشاف فى التاريخ ولكن خيب آمالهم و وُجِدَ فارغًا ولم يعثر على شواهد تدل على صاحبه ولم ينبت التابوت بأى سر يختص الفراعنة، إلا أن غنيم تورط فى فقد بعض القطع الأثرية المتعلقة بالمقبرة المكتشفة وكان موته بعدها مباشرًة فى ظروفٍ غامضة لم تعرف حقيقتها، إلا أن البعض قال عنه انتحار وعزاه إلى فتح المقبرة الملكية كنوع من أنواع اللعنة.

" لن أترك إرثًا إلا من الذعر والرعب لكل من يزعج راحتى الأبدية "

هى عبارة أخرى اشتهرت فى أروقة التاريخ بعد غرق أشهر سفينة فى التاريخ (تايتنك) التى قال مالكها " لن تغرق حتى ولو أراد الله " كانت السفينة تحمل مومياء مصرية لكاهنة عظيمة الشأن فى عهد إخناتون وكانت صورتها محفورة على صندوق مزخرف بالعاج والذهب وكتب على جدرانه هذا النص الذى ترجم، كانت تلك المومياء مِلكًا للورد سنترفيل الذى كان عازمًا إرسالها إلى أحد متاحف نيويورك ولكن السفينة غرقت عندما اصطدمت بحبل جليدى ومعها ١٤٨٩ من ركابها ويقال أن سبب غرق السفينة وجود تلك المومياء الملعونة على متنها.

وهناك لعنة أخرى مشهورة الصدى فى متحف جامعة مانشستر البريطانية والتى تتحدث عن واقعة قيام تمثال مصرى قديم

بالتحرك نصف دورة كاملة بشكل بطىء ليعطى ظهره للزوار، وهو تمثال " ينب سينو " الذى يبلغ طوله (١٠) بوصات موجود بالمتحف منذ أكثر من (٨٠) عامًا، أوضحت اللقطات التى كما لو كانت مأخوذة من فيلم رعب هوليودى – التمثال الحجرى وهو يتحرك من تلقاء نفسه وكان التمثال الفرعونى الذى عمره أكثر من أربعة ألاف عامًا تمثالاً عاديًا جدًا منذ أن ضم للمعروضات فى المتحف إلى أن بدأ التحرك ما أثار حيرة العلماء واندهاش المراقبين، وهناك من قال إن التمثال مصاب بلعنة الفراعنة الجبابرة، خصيصًا أنه تم تقديمه إلى الإله أوزيريس إله البعث والحساب ورئيس محكمة الموتى عند القدماء المصريين، وعثر عليه فى مقبرة مومياء أحد الملوك.

فكل هذه تفسيرات رفضها الكثير من العلماء بما تضمنته من خرافة تتعارض مع زمن العلم الحالى.

***

أتخذ ذلك المنقذ جانبًا ليتحدث مع رئيسه المباشر بما دار ورأى بالداخل أثناء عملية الإنقاذ وذلك أن هدأ روعه وارتدت إليه أنفاسه:

- لقد كانت هناك عملية تنقيب بالداخل تتم وكانتا الاثنتان ملقيتان أرضًا بجوار موضع الحفر، كما أننى بصرت فى تلك التجويفة بجوارهم سطح غلبته النقوش الفرعونية تتصاعد منه أدخنة وأظنها ناتج ذلك وليست بالتراب الناتج من أثر الانهيار وأظن بأن عملية التنقيب هى السبب الرئيسى وراء ذلك الانهيار.

***

نهشنى الرعب بعد قراءة تلك الجريدة لألقيها أرضًا بعد أن ألعكتها بيدى فقد أثارت غضبى لتلقى مصيرها، علمت بمجهولٍ ينتظرنى ليثأر منى للهرب من الضيق الذى يحومنى، أريد النزول إلى الشارع، أريد أن أبصر أناسًا من حولى لقد ضاق بى صدرى من تلك الوحدة التى تملكتنى، يأست ذاك الروتين اليومى، إن كانت قد سطوت على قلبى فلن تسطو على عمرى سأجعلها تندم وتشكو ما سيحل لها هى ومن يعاونها سأكون أنا عدوها، إنها أعراض انفصام فى الرأى كيف أحبها ؟ وكيف سأعاديها؟ لا يمكن من عشق يستطيع أن يكره، أننى على حافة الجنون هذا هو تشخيص حالتى، بت لا أرثا لى، أدركت الآن لماذا تمنى العشاق الموت عن فقد الحبيب؟ عيشت معاناة العشاق من مجنون ليلى وما شابهه.

أتخذت قدماى ذاك الدرج مهربًا سأبصر الضوء أخيرًا وإذ بى أتعركل والدرج لى عدوٌ يهجمنى، سقطت ويبدو أن عظامى تتهشم وتنكسر وقبل أن أفقد وعى سألنى فكرى هل هذا الحدث وليد الصدفة والقدر أم هذه مبشرات اللعنة؟.

بدأت عيناى تومض ولكن هناك ألآم تصرخنى ولا أستطيع أن أحرك ساكن لقد فقدت السيطرة على يداى اليمنى وقدمى اليسرى وأبصرتهم وكانت فاجعتى لقد غُلفا بل طُمسا بذلك الجس الأبيض بجانب بعض الخدوش والكدمات تألمنى وهناك صوت يرافق وجعى من نعومته الراقية:

- سلامتك والحمد لله على كل حال.

هامسنى قلبى بأنها كلمات التعازى فى أعضائى المصابة وقررت عينى أن تبصر مصدر الصوت لأردف ممرضة فى ردائها الملائكى تشابهها حقًا بل هى فى رداءٍ آخر، ما هذا السفه؟ هل هى صدفة أم هى حقًا ؟ أم أنا الآن ميت وهى حوريتى وقادمة كى تشفينى!.

ظللتُ محدقًا لها بما يكفى من الزمن ربما سببت الخجل لها فإنها تتحدث وأنا لست بموجود فى ذلك الكوكب لقد أصطحبتنى عيناها إلى عالم أخر وأنا أبكيها وأعاتبها على ماسببته لى وكيف هجرتنى؟، انتشلنى مما أنا فيه صوت ضحكتها الذى غلبته الموسيقى والنغم لتظهر النغزتين الجميلتين لتزيد من بقاع جمالها بريقًا وأظن ما سمعته أن هناك جارًا لى هو من صحبنى إلى المستشفى بعدما دخلت دوامة اللاوعى، أتخذت قرار الرحيل .. نعم أريد أن أرحل الآن .. لا أريد أن أراك، ألعن ابتسامتك وضحكتك ووجهك أيضًا.

لم أبصرها لاحقًا وعيناى تبحث عنها فى كل الأرجاء وظننتى أحلم، عدت بعد رحلة عذاب طويلة إلى منزلى الملعون الذى بت أكرهه، إنه صار كهف آلامى وصار هذا الجبس رفيقى الجديد وسجانى وضيفى اللصيق.

بدأ تعداد الأيام يمر ونحن لا نفترق فقد اعتدت الحديث معه أشكو له ويشكونى بأوجاعى يا له من عذاب، أدركت نعم الله على الإنسان التى لا تحصى ولا تعد ونحن نهملها كم نحن بلهاء؟ لا نمتلك سوى اللسان وإما صانك وأما أطاحك، أعطانا الله الجسد والروح وتكاسلنا عليه بالعبادة والشكر، لماذا نحن كذلك؟.

يوميًا تدركنى الكوابيس والهواجس وأنا أجاهد وأقاوم ما بين أناسٍ تلاحقنى وأناسٍ تعذبنى وهذا يريد ضربى وهذا يريد غرقى وثعبان يريد لدغى وكلبٍ يهاجمنى ..ألخ.

تم إزالة هذا الجبس عنى وقررت عدم العودة إلى المنزل مطلقًا واستمتع بمشاهدة الناس من حولى فقد احتسبتهم حصنى حتى نادى مؤذنٌ فإنه آذان الفجر يرفع وينادى على العباد وأنا سوف ألبى النداء، لا مفر من غموم الدنيا والضيق الذى يحل بى إلا عنده وإليه أشكو، صحبت أقدامى إلى بوابة المسجد التى أمامى واتممت صلاتى خلف ذلك الإمام الخاشع صاحب الصوت العذب الجميل، بكيت من غفلتى وظلمى لكونى بشر ولجسدى الذى لا أتمالكه وقد أهنته بغبائى، كانت هذه أول مرة فى حياتى اقشعر وأبكى حتى شعرت بالارتياحية الشديدة، تمنيت أن أرحل عن حياتى فى تلك اللحظات فلن أصل لمرحلة التوبة والنقاء هذه، وتمنعت فى تأمل ذلك الدعاء.

" اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا "

أننا نبحث عن السراب هذا ما يُسمى الراحة، أنه شىء لم يخلق وكلما اقتربنا منه ابتعد هو عنا ولن نصل إليه إلا فى الجنة، إذن فلنترك الراحة ونبحث عن الجنة.

بسم الله الرحمن الرحيم

" ولقد خلقنا الإنسان فى كبد " صدق الله العظيم

الكبد هو الضيق والضأن فهو مصير حتمى لا جدال فيه.

دلفت من ذلك الشيب الماكث أرضًا وذلك بعد أن أعتدت على رؤيته فى المسجد فهو دائم الصلاة هنا ودائم الذكر وهذا ما رأيته حتى اعتقدت بأن المسجد مأواه ومسكنه أو أنه خادم المسجد كما أعتدت أيضًا على رؤية مسبحته الخشبية قاتمة اللون وهى تدور بأنسياب تام بين أصبعه وتلازمه كسماعة الطبيب، غمرنى التودد إليه والتقرب له فإن ملامح التقوى والصلاح تكسوه وتجذبك، توقفت أمامه بسنتيمرات وهو لايبالى كأنه شرد فى ملكوت آخر ولسانه يتمتم بالذكر الخافت بالصوت ويداه مسلمَّة فى حبيباته الخشبية وأنا أتنحنح لعلى الفت انتباهه وأظنه أمرٌ لن يجدى، وإذ بى ألقى عليه بالسلام.

أجابنى وهو يبتسم وقد استأذنته بالجلوس جواره ووافقنى وبادلته التعارف وعلمت باسمه وهو حسين، بدأت أسرد له أحوالى وما حدث لى طيلة هذه الفترة وحاكيته بقصة الجميلة التى أحببتها وأننى لا أستطيع محوها من ذاكرتى، صارحنى بردٍ ملىء بالتحذير حتى انتابتنى القشعريرة:

- يقول تعالى في كتابه العزيز: وَيَوْمَ يِحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِيَ أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَليمٌ.

ثم لاحقته الحديث عن ذلك الشيطان الذى كثيرًا ما يهاجمنى (أبيها) ليجيبنى:

- وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۖ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا

وكان أخر سؤال عن تلك اللوامة التى تشاكسنى دومًا:

- وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ (٢٣) أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (٢٤) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ (٢٥) الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ (٢٦) قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (٢٧) قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ (٢٨) مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (٢٩) يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ.

بتُ كمن يقف على رأسه الطير لا يستطيع أن يحرك ساكنًا، إنها الصدمة، كيف دنست نفسى وخسرت ذاتى وعبثت بكافة الأمور؟ كيف وصلت لما أنا فيه؟، استأذنته بالمغادرة ولنا لقاء أخر، أحمل فوق أكتافى هموم لا تسع البحار ولكن قبل أن أرحل سألته المودة فى القربة وتقبل ذلك، لى ملاحظة غريبة لم أراها فإنه يجاوبنى ولسانه لا ينقطع عن الذكر والترتيل الذى يهامس به مسبحته فإنه على سباق مع الزمن فإنه صلاح المتقين.

ترجلت إلى منزلى أبكى على مافاتنى هباءً فى دينى ودنياى لقد غرتنى الدنيا حتى انغمست فيها، بعد من دقائق غلبنى النعاس لأدلف بوابة الكوابيس ولكن اختلفت تلك المرة عن سابق، إنها حرب ضارية لا سلام فيها وكأنها رسالة تحذير بعدم التقرب من طريق الصلاح، إنهم يريدون المعصية فقط.

فى اليوم التالى من قضاء الفروض أبصرت صديقى جالسًا على عادته فقدمت بالتسلل إلى مجلسه، سألته عما يلاحقنى من أضغاث ليجيبنى بعقلانيته:

- جاءت امرأة إلى داوود عليه السلام

وقالت: يا نبى الله ..أربك ظالم أم عادل؟

داوود: ويحك يا امرأة هو العدل الذى لايجور، ما قصتك؟

قالت: أنا أرملة لدى ثلاث بنات أقوم عليهن من غزل يدى فلما كان أمس شددت غزلى فى خرقة حمراء وأردت أن أذهب إلى السوق لأبيعه وأبلغ به أطفالى فإذا بطائر قد أنقض علي وأخذ الخرقة والغزل وذهب، وبقيت حزينة لا أملك شيئًا أبلغ به أطفالى.

وبينما هى تتحدث مع داوود عليه السلام إذ بالباب يطرق فأذن بالدخول وإذ بعشرة من التجار كل منهم يحمل بيده مائة دينار.

فقالوا: يانبى الله أعطها لم يستحق.

داوود: ما كان سبب حملكم هذا المال؟

قالوا: يا نبي الله كنا فى السفينة فهاجت علينا الريح وأشرفنا على الغرق فإذا بطائر قد ألقى علينا خرقة حمراء وفيها غزل فسددنا معيب السفينة فهانت علينا الريح ونذرنا لله أن يتصدق كل منا بمائة دينار وهذا بين يديك الآن فتصدق به على من أردت.

فالتفت داوود إلى المرأة وقال لها:

- ربِ يتاجر لكِ فى البر والبحر وتجعلينه ظالمًا.

وأعطاها الألف دينار وقال أنفقيها على أطفالك.

فلنعلم أن الله لا يبتلينا بشىء إلا وبه خير كثيرًا لنا حتى وإن ظننا السوء، فلنكن على يقين أن هناك شىء ينتظرنا بعد الصبر سينسينا مرارة الألم.

ثم أكمل بعد انتهائه من سرد تلك الواقعة:

- ما رويته هو البلاء والصبر وأنت مبتلى بتلبس من جن عاشق ويحاربك فى التقرب والخيرات ويريدك ملكه فقط حتى تصير عبدًا له فتدنس روحك ويفنى جسدك ويصبح الفتك بك أمرًا وقتيًا، أنت بالفعل خطوت أهدافه بقدميك ولكن خالفة النهاية المطلوبة منك فأصبحت الآن عدوًا له.

مترددًا وأنا أسأله:

- كيف وأنا أحبها وأنت تقول عشق أى تبادلنى الحب ذاته؟

ابتسم لى بوجه ممتلىء بنور العلم ليقول:

- يا بنى أعذب الناس من يمر فى حياتنا ويترك خلفه ذكرى جميلة، أترك الأمور لله فمهما اختفت من حياتك أمور ظننت أنها سبب سعادتك تأكد أن الله صرفها عنك قبل أن تكون سبب فى شقائك، هل تتوقع ما وقعت فيه حلال أو بطريقة أبسط هل هو جائز؟.

لا أدرى ما أقوله الآن، يبدو أن الصمت هو الحل الأسلم الآن، فالصمت ليس دائمًا للإيجاب بل كثيرًا جدًا للسلب، وهل أجادل أهل العلم فى ذلك؟، شردت بعيدًا حيث لا أعلم أين أشرد؟ ليخطرنى أصعب سؤال فى حياتى؟

- كيف أتركها واشفى منها ؟

أسف إن كنت سرقت وقتك عنوَّة،لكنك صاحب وجه منير يسبب الراحة ويزل العناء والغبار عن الأذهان والعيون والقلوب وبكلامك الطيب استمتع بالحديث معك ليتنا تقابلنا مبكرًا ولكنها مقادير الله.

- النية أولاً ثم بعد.

فأردت متعجلاً تكملة الإجابة:

- ثم ماذا ؟

- لكل أجلٍ كتاب.

شعرتُ من ذلك بانتهاء تلك الحلقة وأننى تثاقلت عليه وحقًا هو لم يبخل بعلمه الواسع، عزمت الرحيل فلنا لقاء الغد.

مُنعت عن رؤيته أيامٍ متتالية، وجاءت المقابلة المنتظرة وفى مجلسه المعتاد لاحقته بقلقى وهمى المعتاد:

- منعنى عنك، يحدث لى بعض الأشياء الغريبة فأننى أجد جسدى متورم بكثير من الدوائر المنتشرة فى جانبى الأيسر، أشعر بالألم من ذلك الأمر فإننى اتعذب.

أجابنى بسلاسة متنهية النظير:

- عزمت النية فلتكمل، الزم آية الكرسى قبل المنام وبعد الانتهاء من كل صلاة فهى حصن منيع وعليك أن تسأل الله من فضله.

رجلٌ صادق وصاحب علم ومن أهل التقاليد والعادات حتى أننى عشقت لهجته الصعيدية التى يتفاخر ويتباهى بها، سألته العلم وأن أتم مرحلة شفائى مما أنا فيه ليصارحنى كعادته:

- البداية والنهاية بين يديك فأولاً: التزم الصلاة والصلاح.

ثانيًا: الزم الطهارة الدائمة.

ثالثًا: اجعل لسانك رطبًا بذكر الله.

وما العلم الذى تريده؟ ولماذا؟

أجبته والجدية ترتسم ملامحى:

- هذا العلم الذى تعالج به فأنا لا أريد أن أبصر مريضًا عاجزًا والكل عجز أمامه بالمساعدة ويكتفوا بالمشاهدة وقليل من الشفقة، بدأت أسرد له قصة مريم تلك الشابة البريئة التى لا ذنب لها فيما توصلت إليه.

شرد قليلاً عنى، يتذكر شيئًا ما قد طواه الزمن وأقتضب وجهه بعد سماعه لما صار ليرتدى ثوبٌ حزين:

- توكلت على الله والله المستعان على ما تصفون.

حدث أمرًا ما لا أعلمه ليؤجل الشيخ ترحاله معى إلي تلك الفتاة، لكنى سمعته يقول بصوت خافت:

- ميمون النكاح ذلك العاشق البزىء.

التفت إلى ليسألنى:

- لماذا اخترت ذلك العلم الروحانى؟

لأجيبه:

- أنا لم اختاره بل هو من اختارنى، حاربونى فى الخفاء وأريد أن اغزوهم فى العلن.

كانت كلماتى تحفيزية بعض الشىء وربما أصل لما أريد وربما لا، ابتسم لى فاظنه سعيد بإرادتى وربما أذكره بشبابه:

- هو من أصعب العلوم ولكنه يقوم أيضًا على أسهل الأمور وأبسطها ألا وهى التقوى والالتزام وعدم الاخلال.

هو علم الخفاء وجهاد النفس.

هو علم صفاء الروح وانتقائها من الشرور والشهوات.

وأعلم جيدًا لكل مجتهد نصيب.

الجن يعيش بيننا فى منازلنا وأرضنا وهم ينقسمون لعشائر وقبائل، لهم دنياهم الخاصة وخواصهم الخاصة فهم أهل الخفاء، ومن يُنكر ذلك هو يُكذب بخلق الله، أكمل الحديث بتلاوته:

" وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قددًا " صدق الله العظيم

وأيضًا هو علم أهل الله والعارفين به ولكل أمرىء ما نوى، فرُب أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره.

وعليك أن تعلم بأن هناك من يستخدم هذا العلم بشكلٍ خاطىء أى طريق الشرك بالله وهو ما يدعى السفليات، هو طريق الشر والأسحار حاشالله، ولوجود الشر لابد من توافر الخير والحق وهو الطريق الروحانى النورانى وأهل الطرق(الشاذلية – التيجانية - الرفاعية... ألخ) مع اختلاف الله حول نهج كل منهم، الروحانى ملتزم بالأوراد وعددها والأيام حتى ينال التجلى والمدد بإذن الله.

لاحظ هو تلك الملامح التى اعتلت وجهى من عدم إدراك وجهل بالأمر ليكمل ما بداه بأسلوبٌ علمى:

- الوِرد اليومى أى الذكر الخاص بك لابد أن يسبقه الاستغفار والصلاة على النبىﷺ بعدد معين ويختم به أيضًا بعد انتهائك من الوِرد.

كيفية حساب الأعداد الخاصة بالوِرد:

هو أن تختار آية من كتاب الله تستشعرها بقلبك أو مفضلة إليك فكتاب الله ملىء بالبركات ثم نحتسبها عددًا من خلال ذلك الجدول الرياضى.

جدول حساب الجمّل							
ا	١	ح	٨	س	٦٠	ت	٤٠٠
ب	٢	ط	٩	ع	٧٠	ث	٥٠٠
ج	٣	ي	١٠	ف	٨٠	خ	٦٠٠
د	٤	ك	٢٠	ص	٩٠	ذ	٧٠٠
ه	٥	ل	٣٠	ق	١٠٠	ض	٨٠٠
و	٦	م	٤٠	ر	٢٠٠	ظ	٩٠٠
ز	٧	ن	٥٠	ش	٣٠٠	غ	١٠٠٠

وبعد حسب العدد الخاص بالآية أو الاسم من أسماء الله الحسنى والوصول بالناتج النهائى تلتزم بالطريقة يوميًا لمدة ٤٥ يوم ولابد أن يتلى الوِرد بعدده بعد كل صلاة وبإذن الله يمنن عليك الله بالفتح.

سألته:

- هل يوجد طرق أخرى؟

- كثيرة جدًا فهناك المزامير(مزامير دواوود) والعهود السليمانية وبعض الدعوات مثل البرهتية وهناك علوم أخرى مثل الجفر وعلم الرمل والفلك والكف والأعداد والحروف.. ألخ.

وباب الروحانية هو الأفضل واجعله لله كى تؤجر وحتى تكتب مع الذاكرين المستغفرين ولا تتعجب فتصب الخطأ فإن لله ما أعطى ولله ما أخذ، أعلم بأن للخير دائمًا عوارضه ودائمًا لا يريد الشيطان وأعوانه أن يسلك الإنسان طريق الخير فما بالك وأنت تحاربه هو وأتباعه فإنها ليست بالحرب الهينة، كلما تقربت انتصرت فعندما تدنو من شفاء الصدور طرد شرك أى تلبسك والزم الخمسة صلوات فإنها حروب عقائدية ولا منجى منها إلا الله، إثبت فإنك على الحق.

وعدته أن التزم بطريق الوصول وبوابة الزهد ونور اللحد ومنها أهدانى بمسبحةً خشبية تماثل مسبحته.

زادنى تطفلى بسؤال يحيرنى:

- لماذا تعددت الشيوخ والمعالجين مع مريم بدون ناتج بل ازداد الأمر سوءً ؟

أجابنى:

- سؤال جيد وما سأقوله لا يدركه الكثير لقد اختلط الحابل بالنابل، نحن فى زمن تكاثر فيه أساليب الغش والنصب فأصبح الملبوس معالجًا من أجل أهداف دنياوية دنيئة، فالحقيقة هناك فرق بين الراقى والمعالج الروحانى ألا وهو التخصص فلا يجوز أن يعالج طبيب بيطرى شخص مريض بالربو بالطبع لا، كذلك عِلمُنا فنحن نملك أسلوب مباشر أى نعلم أولاً نوع التلبس أى ديانته من مسلم – مسيحي- يهودى ..إلخ فلكل منهم آيات معينة للشفاء أما الراقى لا يعى ذلك نهائيًا فهى طريقة ثابتة يستخدمها مع جميع الحالات وذلك ما يسبب ضرر أكثر ومن الممكن تلف فى أحد أعضاء المتلبس، فجسد الشخص المريض أصبح مسكن ذلك الجنى منذ سنين ولابد للأخير أن يدافع عن مسكنه فهو يراه حق جبرى لا يؤخذ منه إلا بالقوة الجبرية وأحذر فى العلاج استخدام آيات الحرق فهى روح وستسأل عنها ولها أقارب وأصدقاء وأهل مثلك تمامًا، لن يتهاون أحد فى حقوقه.

بسم الله الرحمن الرحيم

وأتقوا يومً ترجعون فيه إلى الله" صدق الله العظيم."

حتى شعرته ينهى كلماته بنصيحة أبوية ليست من مُعلم إلى تلميذه بل من أبٍ إلى ابنه:

" كل معضله برؤية البشر ويوجد لها حلاً وأخر إلا الموت لن تجد منه مفرًا إلا بالتقوى " .

كانت كلمات ذات قيمة تُنحت فى الذاكرة لمواجهة الأحداث المجهولة.

***

بدأ الشغب يحوم بالأجواء واشتعل فتيل الفتن وأتمها الجوع بندة الصيد وأفات المحاصيل، الرجال عاجزون عن مطعمهم وبكاء الأطفال يثير ضجر النساء فقد جفت صدورهم وها هى السماء أغلقت أبواب أمطارها فباتت هى أهوال الغضب فإنه رباط السحر قد زال ويسطو بغضبه لتصير أرض دماء وبور وجوع ووباء، لعنة شيطان أصابت الأراضين.

لم يهنأ بثورة توحد القبائل فإن دوام الحال من المحال، باتت السعادة هى القدر الوهمى الذى يدوم ضئيلاً ومحرم عليه القبع فى تلك البقاع.

***

بدأت أشتد بخطوات الذكر والعلم المبين والأيام تتوالى وإحساس الارتياحية الذى فقدته يناديني فإن روحى محلقَّة سماءً من كثرة الأوراد وإذ بمعكر الأجواء يأتينى مرَّة أخرى لا أعلم من أين يناديني.

كابوسٌ كاحل السواد كليلى الغاطس لا أبصر فيه أحد ولكن هناك صراخ وعويل يأتينى من بعيد كقطارٍ يقترب فأظنه من باطن الأرض يناديني، هناك من يتعذب واستشعرته صوتها فإنى لم أسمع صرختها مطلقًا وتكررت الصرخة لتصطدم أذنى لانتفض بسببها:

- لن أتركك وسانتقم منك ولن تكمل ما بدأت مطلقًا.

لا أنكر خيفتى من ذلك التوعيد وإلا أصبحت منافقًا وسيتلاشى ذلك الشعور مع مرور الوقت وليته بعيدًا عن أعين اعتبارى، أعرت العلم الاهتمام الشديد كطالب يريد الامتياز وألتزمتُ الجهاد النفسى لأجده أصعب ما يتخيله المرء فلتجربه بذاتك إن استطعت حتى ولو بساعة واحدة، انفرد بنفسك واذكر ولكن اجعله خالصًا لله.

مرت الأيام واصرارى يتزايد ولا أكِل ولا أمل فطريق الألف ميلاً دائمًا يبدأ بخطوة حتى كان وأنعمنى الله وقررت أن أنفخ بكل ما اوتيت بقوة فى بوق الحرب على ذلك العالم بما يحمله من شرور، هى أول من أحاربه وبداخلى أمل باهت الضوء أن اجعلها تهتدى الطريق وأظن أن ذلك الحل يُعد من المستحيلات والمعجزات فكيف لابنه الملعون أن تؤمن؟.

هى من تهرب منى الآن وأنا أبحث عنها فهدفى وليد ظلمها لما تحومه من تدمير الرجال، إن كنت نصرت الحق وهزمت ذلك الباطل الذى سكننى طويلاً فهناك من هم مثلى الآن ينتظرون حتفهم وقد استسلموا ولم يجدوا الفرصة للخلاص فأصبحوا موتى بين الأحياء، هياكل عظمية سلبت منها الإنسانية وعقول بالية كأعجاز نخل خاوية، لا تسلموا للظلم الذى سكنكم.. طهروا قلوبكم من صدأ الغفلة فإن المرء يحشر مع من أحب، إن ناصرت الظلم فهو حتفك وإن ناصرت الحق نجوت بنفسك فيكفيك نصره بكلمة فلا يكلف الله نفسًا إلا وسعها، أزهقوا الباطل الذى طمسكم ولو بالنية.

***

ما إن التقطت يداها ذلك الكتاب الجلدى المغلف بالأتربة فأوجستها الخيفة وبصرت ذلك المصير المقتم الذى سيلحقها من خلال تلك البصيرة المستقبلية التى تشابه دوامة زمنية تنير لك رؤية المستقبل إلا وأعلنت إغلاقه بعد دقائق من دعسها داخل المستقبل المرعب ذلك لتنجى عالمًا بأكمله من تلك اللعنة، كان قرار حريقه صائبًا حتى لا يهلك أحد ولا يلقى أحدهم مصرعه بسبب ذلك السحر المحمل بالبغض والكراهية وثراء المطامع.

***

أيادِ مرتعشة تتلصص بحوافها من داخل البئر تنبثق من الفوهة الشيطانية لعل البئر يتمخض بمولوده الجديد كما تمخض بإمرام سابقًا.. أشتد أحبال عصبه وحمل جسده ليقذفه خارج الدائرة وقد نجح فيما يفعل.. جسدٍ شديد الظلمة لا تدرك ملامحه نهائيًا لكن هناك ما يميزه وهوعيناه الناريتان الذى ستعذب كل من يراهم فإنهم جمرًا مشتعل وليست عينان لبشرٍ قط.. أتخذ السير سبيله فإنه يدرك مقصده جيدًا وبدأت أقدامه تُدهس كل ما تنوله من حشائش ونبات وأوراق شجر حتى وإن كان حيوانًا فإن الطين ذاته يصرخ من أسفل قدماه بأنينٍ لا يسمع فإنه بشر الجلمود.

استقر سيره عند شجرة عالية العود كثيقة الأوراق والجزوع ليتخفى ورائها كلص الأسواق ليتأمل تهليل هؤلاء المساكين هُزل الفروع فإنه يبشرهم بتعطشه الدموى وينذر الأرض بنيل ما تستحق من الزُئام.. يا لتلك المقادير.

***

أحسستُ بوصولى للنهاية ولكن هيهات إنها بداية النهاية، بل أول ألآم البداية، فقد أصابتنى الفاجعة بل المصيبة الكبرى وهى وعدها الموعود وندائها المشهود الذى تجاهلته لألقى ذاتى ملقى خلف قضبان حديدية موحشة الفجع والألم فى أحد السجون نعم أنا ذلك الأسير الذى يكتب من داخل محبسه، صدّقتنى الملعونة وأجادت الانتقام لتفوز بالجولة الأولى وألقى أنا فى ظلام المصير.

أبحث عن هارووديس حياتك.

عن دليل روحك وعطائك.

عن صدمتك الأولى التى تلاصقك .....

تمت